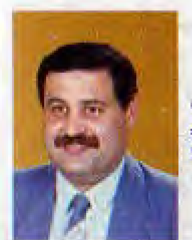

روايات مصرية للجيب
د. نبيل فاروق
رجل المستحيل
المواجهة الأخيرة
140
www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^
طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

المواجهة الأخيرة

- هل يمكن أن ينجو أي بشرى من فخ محكم تحيط به النيران ؟!
- كيف يتمكن (أدهم) وفريقه من كشف موقع زعيم (المافيا) الروسية الغامض ؟!
- ترى لمن يكون النصر هذه المرة، ومن يربح (المواجهة الأخيرة) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة، وقاتل بعقلك وكيانك مع الرجل .. (رجل المستحيل) ..



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

140



2201395

رجل المستحيل

(أدهم صبرى).. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١).. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لست لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكّر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعددة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة تلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١ـ النيـــران..

احتقن وجه رجل المخابرات الروسى (سيرجى كوربوف)، من شدة الغضب، وهو يدير عينيه فى وجوه زملائه، الذين يحيطون به، وفوهات مدافعهم الآلية مصوّبة إليه فى تحفُّز، فى حين غمغم (أسعد)، مدير مكتب (موسكو)، التابع للمخابرات العامة المصرية، وهو يقف إلى جواره، وسط حلقة الموت هذه:

ـ يا للخسارة!

نطقها، وذهنه يستعيد بدايات تلك المغامرة العنيفة، التى انتهت به، وبرجل المخابرات الروسى، إلى هذا الموقف العصيب..

كانت البداية بعد سقوط (أدهم صبرى)، على جليد (موسكو) الدامى، بعد قضائه على (إيفان إيفانوفيتش)،

زعيم (المافيا) الروسية، وسقوط أوّل فريق عمل تحت قيادته، من شباب المخابرات المصرية، فى قبضة المخابرات الروسية ..

كانت الجهود الدبلوماسية قد نجحت فى إنهاء الأزمة، واقنعت القيادة الروسية بإعادة (أدهم) الفاقد الوعى، وفريقه الثلاثى الصغير إلى (القاهرة)، عندما تولى (يورى إيفانوفيتش)، شقيق (إيفان) زعامة منظمة (المافيا) الروسية، بعد مصرع شقيقه، وقرّر الانتقام من (أدهم) ورفاقه؛ لتستعيد المنظمة سمعتها وهيبتها ..

ومن هنا بدأت حرب طاحنة بين المصريين و(المافيا) الروسية ..

حرب استعاد خلالها (أدهم) وعيه بمعجزة، وبدأ يقود فريقه، وزميلته (منى)، وشقيقه (أحمد)، وصديقه (قدرى)، فى حرب مستميتة، لم تلبث المخابرات الروسية أن انضمت إليها؛ بسبب خدعة حقيرة، قام بها الجنرال (جوزيف كوالسكى)،

رجل المخابرات الخائن، الذى يعمل سرًّا لحساب (المافيا) الروسية ..

وحتى لايعترض طريق الخونة، تمت إزاحة (سيرجى كوربوف) من الطريق، بمحاولة اغتيال عنيفة، اتُهم فيها المصريون ..

وببراعة وعبقرية، يمتزجان بلمحة من جنون وحشى، راح (يورى إيفانوفيتش) يدير المعركة، ويقود منظمة (المافيا) الروسية، على نحو لاينافسه فيه أشهر وأقوى القادة العسكريين عبر التاريخ ..

وخسر (أدهم) قائد فريقه، النقيب (علاء)، وسقط كل رفاقه فى قبضة رجال (المافيا) الروسية، لتتخذ الحرب منحنى جديدًا ..

ومع غضبه وثورته، راح (أدهم) يقاتل كالأسود ..

وبمنتهى العنف ..

وبدأت الهزائم تتساقط، على رءوس منظمة (المافيا)، وأدرك (يورى) أنه يواجه خصمًا من نوع خاص ..

بل أقوى خصم واجهه ، فى عمره كله ..

أو حتى فى خياله ..

وكنتاج طبيعى ، ارتفعت حدة وقوة الصراع أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وفى الوقت ذاته ، كان (يورى) يستعد لأقوى ضربة إرهابية عرفها التاريخ ، فى كل الأزمنة ..

فبمعاونة الجنرال (فاسيلوف) ، استولى زعيم (المافيا) الروسية على كمية هائلة من غاز الأعصاب ، من مخازن الجيش السوفيتى ، وبدأ يستخدمها بالفعل ، لتحقيق مخطط جنونى ، لم ينجح فيه أى مجرم قط ..

السيطرة على العالم كله ..

وأصبحت مهمة (أدهم) مزدوجة ..

ومستحيلة ..

كان عليه أن يستعيد رفاقه ، من قبضة (المافيا) الروسية ، وأن يمنع زعيمها نصف العبقرى ، ونصف المجنون ، من تنفيذ مخططه الوحشى الرهيب ..

ومع استعادته لوعيه ، قرر (سيرجى كوربوف) أن يخوض المعركة ..

ولكن ليس كما تخوضها مخابراته ..

لقد قرر أن يخوضها جنبًا إلى جنب ، مع (أدهم صبرى) ..

من أجل (روسيا) ..

ومع تقدم (يورى إيفانوفيتش) فى مخططه الوحشى ، كان (أدهم) يتوصل إلى موقع رفاقه ..

وكان عليه أن يسعى لإنقاذهم واستعادتهم ..

وبأى ثمن ..

وفى سبيل هذا ، اختطف (أدهم) مقاتلة سوفيتية فى محاولة لبلوغ صوامع الغلال فى (لينجراد) ، حيث تم سجن رفاقه ..

وحرر (سيرجى) زميله (أسعد) ، مدير مكتب (موسكو) ، ليلحقا معًا بـ (أدهم صبرى) ..

وأنقذ (أدهم) رفاقه بالفعل ..

ولكن الموقف كله كان عسيرًا للغاية ، فالكل كان مصابًا بشدة ، و(قدرى) يعانى سكرات الموت ، وجيش من (المافيا) يحيط بالمكان كله ..

وقاتل (أدهم) ..

قاتل ..

وقاتل ..

وقاتل ..

وعلى الرغم من أنه قد نجح فى إنقاذ رفاقه ، وإخراجهم من سجنهم ، إلا أن شقيقه (أحمد) بقى داخل الصومعة ، التى تحيط بها النيران ..

وكان على (أدهم) أن ينقذه ..

وبأى ثمن ..

وفى نفس اللحظة ، التى أصدر فيها (يورى إيفانوفيتش) أوامره إلى رجله (شلينكو) ، بإطلاق عبوات غاز الأعصاب ، فى قلب (القاهرة) ، والتى وقع فيها (كوريوف) مع (أسعد) ، فى قبضة رجال المخابرات الروسية ، بلعبة قذرة جديدة ، من الجنرال (كواليسكى) ، كان (أدهم) يقاتل لإخراج شقيقه الوحيد ، من قلب النيران ..

ولكن الكوخ الخشبى المحيط بالصومعة ، انهار بعنف ، مع قوة النيران ، وراح يغمر الصومعة بدخان كثيف للغاية ..

دخان لا يمكن أن يحتمله بشر ..

أى بشر(*) ..

وعلى الرغم من أن (أسعد) لم يكن يعلم بتلك التطورات الأخيرة ، إلا أن وجوده مع (سيرجى كوريوف) ،

(*) للتفاصيل ، راجع الأجزاء الخمسة الأولى ، (الأستاذ) ، و(المغامرة الكبرى) ، و(مدينة الذئاب) ، و(الضحايا) ، و(الوحش الأعمى) .. المغامرات أرقام (١٣٥) ، (١٣٦) ، (١٣٧) ، (١٣٨) ، (١٣٩) .

وكل تلك المدافع الآلية المتحفزة ، مصوبة إليهما ، منحه شعوراً بأنه لم يعد هناك أمل ..

أدنى أمل ..

أما (سيرجى كوربوف) ، فلم يكن فى كيانه مكان لذرة واحدة من اليأس والإحباط ، والمرارة ..

فقد كان يتفجّر بالغضب ..

غضب هادر بلا حدود ، جعله يهتف فى وجه زميله (أندريان) ، قائد المجموعة التى تحيط به ، والصرامة الغاضبة تشتعل على لسانه :

ـ هل انضممت أخيراً إلى قائمة الفاسدين ياكولونيل (أندريان) ؟!

انعقد حاجبا الأشقر متين البنيان ، وازداد فكاه عرضاً ، وهو يقول من بين أسنانه ، فى صرامة قاسية :

ـ أنت تعرفنى جيّداً يا (سيرجى) ، وتعرف أننى لست من ذلك الطراز الحقير ، الذى يمكن شراء مبادئه بالمال .

لوّح (سيرجى) بذراعه ، قائلاً فى حدة :

ـ ما الذى تفعله الآن إذن ؟!

أجابه (أندريان) ، بنفس الصرامة القاسية :

ـ أنفذ الأوامر يا (سيرجى) .. القيادة طلبت اعتقالك ، فور وصولك إلى (لينينجراد) .

سأله (سيرجى) بقسوة مماثلة :

ـ وهل سألت القيادة عن سبب اعتقالى ، أم أنك تنفذ أوامرها كالأعمى الأصم فحسب ؟!

احتقن وجه (أندريان) ، وهو يقول :

ـ ليس هذا من شأنى .

شدّ (سيرجى) قامته ، وهو يقول فى صرامة أكثر قسوة :

ـ حتى لو كان الثمن هو أمن (روسيا) ومستقبلها ؟!

صمت (أندريان) بضع لحظات ، وهو يتطلّع إلى عينى (سيرجى) مباشرة ، وكأنما يحاول أن يستشف ما تخفيانه ، قبل أن يقول فى عصبية :

- (سيرجى) .. ما الذى تحاول فعله بالضبط ؟!

أجابه (سيرجى) ، فى سرعة وصرامة :

- إنقاذك من التورط فى مستنقع قذر ، قادر على ابتلاع تاريخك كله ، ووضعه فى أحقر ملف عرفته (روسيا) .

بدا (أندريان) أكثر عصبية ، وهو يقول :

- هل تتهم القيادة بالخيانة ؟!

هز (سيرجى) رأسه نفيًا فى بطء ، وهو يجيب فى صرامة :

- بل أتهمها بالانسياق وراء عقل إجرامى حقير ، دون تروٍّ أو تفكير عميق كما يُفترض .

مرة أخرى ، تطلع (أندريان) إلى عينى (سيرجى) مباشرة ، فقال هذا الأخير ، فى حزم قاس صارم :

- (أندريان) .. كلانا يعرف الآخر جيدًا ، وأعتقد أن أفضل ما نفعله الآن ؛ هو أن نتحدث بعض الوقت وحدنا .

طال صمت (أندريان) هذه المرة ، قبل أن يلتفت إلى أحد رجاله ، قائلاً فى خشونة :

- أنت أفضل رام لدينا .. صوِّب بندقيتك طوال الوقت ، نحو رأس الكولونيل (سيرجى) مباشرة ، وأطلق النار إذا ما بدرت منه أية بادرة لمهاجمتى .

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، وقال فى صرامة :

- سأفعل .

وهنا ، أشار (أندريان) بيده إلى (سيرجى) ، قائلاً :

- اتبعنى .

وخفق قلب (أسعد) بين ضلوعه فى قوة ، وهو يراقبهما يبتعدان ، إلى منطقة منعزلة ، فعلى الرغم من المدافع الآلية المصوَّبة إليه ، والأصابع المتحفزة فوق أزندتها ، والنظرة القاسية الصارمة فى عيون حامليها ، راوده شعور قوى بأنه مازال هناك أمل ..

هذا لو أن الوقت يكفى لفعل أى شىء ..

لو ..

* * *

ثلاثة كيلومترات فحسب ، كانت تفصل (شلينكو) ، عميل منظمة (المافيا) الروسية ، عن مدخل (القاهرة) ، وهو يقود سيارة كبيرة ، أمريكية الصنع ، اكتظت حقيبتها الواسعة بأكبر عدد ممكن ، من أسطوانات غاز الأعصاب المركز ، التى قضت واحدة منها على قرية (نوردفك) بأكملها فى (روسيا) ..

ومع إجراءات الأمن القوية السريعة ، التى قام بها جهاز الشرطة ، بالتعاون مع خبراء المخابرات العامة ، تم إيقاف الزمن ، فى (مصر) كلها تقريبًا ..

كل الطرق أغلقت ..

كل وسائل النقل توقفت ..

عمليات البحث والتفتيش جرت بأقصى سرعة ، وبأكبر قدر من الدقة والحزم ، على كل المحاور ، فى آن واحد ..

وكان من السهل أن يدرك (شلينكو) أن الأمور لاتسير على طبيعتها ..

ولأنه لا يستطيع ، ولايملك اتخاذ القرار بنفسه ، فقد استخدم هاتفه المحمول المتصل بالأقمار الصناعية مباشرة ؛ ليبلغ (يورى إيفانوفيتش) ، زعيم (المافيا) الروسية بالأمر ..

وأصدر (يورى) ، ذلك الوحش الآدمى نصف المجنون ونصف العبقرى أوامره الصارمة ، بتنفيذ خطة الطوارئ فورًا ..

وكان تنفيذ تلك الخطة يعنى ألا ينتظر (شلينكو) ، حتى يبلغ الهدف المتفق عليه ، فى قلب (القاهرة) ..

وأن يطلق أسطوانات الغاز كلها ..

فورًا ..

وكان هذا يعنى ، وفقًا لأقل تقدير للخبراء ، مصرع الملايين من البشر ..

سبعة ملايين على الأقل ..

وهذا الرقم يتجاوز ـ فعليًا ـ مافعلته القنبلة الذرية الأولى ، مما يجعلها أعنف وأبشع جريمة قتل عرفها التاريخ ..

ولكن هذا لم يهزّ شعرة واحدة، من رأس (يورى إيفانوفيتش)..

أو حتى (شلينكو)..

فبكل هدوء، وبعد تلقيه الإشارة، جذب (شلينكو) صندوقًا، من أسفل مقعد السيارة المجاور، والتقط منه قناع غاز حديث صغير، يتصل بأسطوانة أكسجين متوسطة، وهو يغمغم:

- يتصورون أنهم أذكياء.

ثم ارتدى القناع فى إحكام، مستطردًا فى صرامة:

- فليدفعوا الثمن إذن!

نطقها، ويده تمتد نحو ذراع معدنية صغيرة، أضيفت إلى تابلوه السيارة حديثًا..

ذراع يكفى جذبها، لتنطلق أسطوانات الغاز القاتل..

وبلا رحمة..

بلا ذرة واحدة منها..

* * *

«لا..»

انطلقت صرخة (منى)، حاملة كل ذعر ورعب وهلع، وارتياع الدنيا كلها، عندما شاهدت تلك الكوخ الخشبى المحترق، وهو ينهار، فوق فتحة الصومعة، التى اختفى داخلها (أدهم)..

وبنظرة امتلأت باللوعة والذهول، حدّق (شريف) فى المشهد الرهيب، مغمغمًا:

- مستحيل! مستحيل!

أما (ريهام)، فقد شملها ذهول جامد لبضع لحظات، قبل أن تصرخ:

- لابد أن نفعل شيئًا.. لابد.

صاحت (منى)، وهى تدير محرك السيارة مرة أخرى فى حزم:

- سأعود.

فى هذه المرة، لم يعترض أحد.

الثلاثة كانت قلوبهم تخفق فى عنف ، وعقولهم عاجزة عن تصديق مصرع أستاذهم أمام أعينهم ..

كان هذا بالنسبة لهم هو المستحيل !

المستحيل بعينه !

وبكل الحزم والعزم ، وبقلب يرتجف رعبًا وهلعًا ، على مصير حبيب عمرها ، اخترقت (منى) دائرة النيران بالسيارة ، وهى تهتف :

- ألا يمكنك استخدام قنبلة أخرى ، لإيقاف هذه النيران ؟!

هزت (ريهام) رأسها نفيًا فى قوة ، وهى تقول فى مرارة :

- حتى لو وجدت الخامات اللازمة ، فهذا لن يفلح أبدًا .. إنهما داخل صومعة محدودة الجدران ، وموجة التضاغط ، التى سيصنعها الانفجار ، ستكفى وحدها لقتلهما ، لو ....

وارتجف صوتها فى عنف ، وهى تضيف :

- لو لم تفعل النيران .

اتسعت عينا (منى) عن آخرهما ، وهى تحدق فى الأخشاب المشتعلة ، فى موقع الصومعة ، ثم لم تلبث أن هزت رأسها فى قوة ، على نحو تطايرت معه الدماء ، من جرح عنقها ، وتناثرت على وجهى (شريف) و(ريهام) ، قبل أن تقول فى حزم :

- لن يرحل وحده .

نطقتها ، وهى تفتح باب السيارة ، وتهمّ بالقفز منها ، فأمسكت (ريهام) ذراعها فى قوة ، صائحة :

- ماذا ستفعلين ؟!

صاحت بها (منى) ، فى صرامة عصبية غاضبة :

- اتركينى أيتها الملازم .. إنه أمر .

هتف (شريف) :

- أمر بماذا ؟! بأن نفسح لك الطريق للانتحار ؟!

هل سيدفعك حبك للأستاذ ، إلى إتيان ماحرمه الله (سبحانه وتعالى) ؟!

نقلت بصرها بينهما فى غضب ، على الرغم من الدموع التى سالت من عينيها ، وهى تقول فى حدة :

- الانتحار ؟! هذا لم يخطر ببالى قط ؛ فمن يعمل إلى جوار أسطورة ، مثل (أدهم) ، لايمكن أن يغضب الخالق (عزّ وجلّ) قط .

سألتها (ريهام) فى حيرة :

- ماذا كنت تعنين بعبارة إنه لن يرحل وحده إذن ؟!

صاحت بها :

- عنيت أنه لابد أن نفعل أى شىء لإنقاذه ، حتى ولو دفعنا حياتنا ثمنًا لهذا .

أقلتت (ريهام) ذراعها ، وهى تقول فى حزم :

- بالتأكيد .

وفى لحظة واحدة ، ودون اتفاق مسبق ، غادرت السيارة مع (شريف) ، على الرغم من آلامهما ، والدماء التى تنزف من جروحهما ، وهى تضيف :

- كلنا سنفعل هذا .

لم تكد تنطق عبارتها ، حتى التقطت آذانهم هدير محركات سيارات ، تقترب من المكان بسرعة كبيرة ، فهتفت (منى) :

- يا إلهى ! تُرى هل ..

لم يكن هتافها قد اكتمل ، عندما اخترقت أربع سيارات قوية نطاق النيران ، وتوقفت داخله ، وقفز منها عدد من الرجال الأشداء الأقوياء ..

وفى لحظة واحدة ، وقبل أن تحرك (منى) يدها ، كانت فوهات مدافع آلية قوية ترتفع نحوها ، ونحو (ريهام) و(شريف) ..

ومن عيون حاملى الأسلحة ، أطلت نظرة صارمة مخيفة ..

نظرة تعنى أنه لم يعد فى الإمكان القيام بأى عمل ، لمحاولة إنقاذ (أدهم) ..

أى عمل ..

على الإطلاق .

* * *



٢ـ الجريمة ..

« الاتصال تمّ .. » ..

هتف مسئول قسم الاعتراض بالعبارة ، وهو يلوّح بورقة فى يده ، مقتحمًا حجرة الاجتماعات الرئيسية ، حيث يجتمع مدير المخابرات بمعاونيه ، مع عدد من قيادات الشرطة ، فهبَّ الكل من مقاعدهم ، وهتف المدير فى لهفة :

ـ هل حددتم موقعه ؟!

أجابه مسئول الاعتراض فى انفعال :

ـ إلى حد ما ، فالاتصال تمّ ، من خلال هاتف متصل بالأقمار الصناعية ، من منطقة الطريق الزراعى الرئيسى ، على مسافة ما بين كيلومترين ، وستة كيلومترات ، من المدخل الشرقى لمدينة (القاهرة) .

هتف أحد قيادات الشرطة فى انبهار :

- بهذه الدقة ؟!

قبل حتى أن يتمّ عبارته ، وثب قيادى آخر ، من قيادات الشرطة ، إلى أقرب هاتف ، وراح يبلغ تلك المعلومة الخطيرة لرجاله ، فى المنطقة التى تم تحديدها ، فى حين بدأ أحد معاونى مدير المخابرات فى إبلاغ رجاله بالأمر ، والمدير يقول فى حزم متوتر :

- لابد أن نتحرك جميعًا بأقصى سرعة الآن ، فكل دقيقة أصبح لها ثمن فادح للغاية ..

ثم انعقد حاجباه ، وهو يضيف :

- بل كل ثانية .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان أكثر من عشرة رجال ، من الشرطة والمخابرات العامة ، يتحركون على أقدامهم ، بأقصى سرعة ممكنة ، بين السيارات المتوقفة ، فى المساحة التى حددها قسم

الاعتراض ، بحثًا عن أى مشتبه فيه ، يمكن أن يكون المسئول عن عملية غاز الأعصاب ..

وبينما كان أحد ضباط الشرطة يعدو ، وبصره يتنقل بين السيارات ، وركابها وقادتها يتابعونه ، فى مزيج من القلق والحيرة والتساؤل ، لمح الضابط ذلك الروسى (شلينكو) ، وهو يرتدى القناع الواقى من الغازات ..

ودون أن يضيع لحظة واحدة ، استلّ الضابط مسدسه ، واندفع نحو سيارة (شلينكو) ، وهو يهتف :

- توقف ، أو ....

انطلقت رصاصات مسدسه مع هتافه ، وحطّمت زجاج سيارة الروسى ، قبل أن تبلغ يده تلك الذراع الصغيرة ، فحنى رأسه فى سرعة ، وهو يهتف فى غضب :

- يا للمصريين !

ثم انتزع من الصندوق المجاور له مدفعًا آليًا قصيرًا ، إسرائيلى الصنع ، واعتدل يطلق رصاصاته نحو ضابط الشرطة ، صارخًا :

ـ فليكن أيها المصرى .. أنت أردت هذا .

اخترقت رصاصاته صدر ضابط الشرطة ، وانتزعته من مكانه ، ليرتطم بإحدى السيارات الواقفة فى عنف ، اشترك مع دوى الرصاصات ، ليفجّر موجة من الرعب الهائل ، بين السيارات المتوقفة ، فاندفع ركابها وقادتها منها فى ذعر ، وانطلقت صرخاتهم ، وهم يعدون فى كل اتجاه ..

وفى عصبية غاضبة ، عاد (شلينكو) يمدّ يده إلى تلك الذراع المعدنية ، وهو يقول فى حدة :

ـ ربما كنت أسعدهم حظًّا ، أيها الضابط المصرى ، فالكل سيلحق بك بعد أقل من دقائق خمس .

كان رجال الشرطة والمخابرات يندفعون نحو البقعة ، التى دوت عندها الرصاصات ، ولكن موجة

الذعر الحادثة أربكتهم فى عنف ، واعترضت طريقهم فى شدة ، فهتف أحد رجال المخابرات ، وهو يثب فوق مقدّمة أقرب سيارة إليه :

ـ اتبعونى .

وثب من سيارة إلى أخرى ، فى سرعة ومرونة ، ولم يكد يلمح (شلينكو) ، مرتديًا قناع الغاز ، ويده تمتدّ نحو تلك الذراع المعدنية الصغيرة ، فى تابلوه سيارته ، حتى استلّ مسدسه ، وصرخ ، وهو يثب فى الهواء :

ـ إياك !

ومع صرخته ، انطلقت رصاصات مسدسه ..

نحو الهدف مباشرة ..

واخترقت الرصاصات الزجاج الأمامى لسيارة (شلينكو) ، ونسفت جمجمة الروسى ، الذى جحظت عيناه عن آخرهما ، وأصابعه تكاد تلامس تلك الذراع الصغيرة ، قبل أن يسقط رأسه على عجلة القيادة ، وتتفجّر دماؤه فى السيارة كلها ..

أما أسطوانات غاز الأعصاب ، فقد ظلت قابعة فى حقيبة السيارة الأمريكية الكبيرة ، كدليل على أن (يورى إيفانوفيتش) قد خسر هذه الجولة ..

بجدارة ..

* * *

على الرغم من جروحهم وإصاباتهم ، والدماء التى تغمر أجسادهم ، تحفَّزت كل عضلة فى جسد (منى) و(ريهام) و(شريف) ، وهم يتطلعون إلى الرجال الأقوياء الأشداء ، الذين أحاطوا بهم ، وصوَّبوا مدافعهم الآلية ، و ...

« اخفضوا أسلحتكم .. »

انبعث الأمر بغتة ، بصوت صارم قاس ، ولكنه مألوف لآذان ثلاثتهم ، حتى إن (منى) قد هتفت ، فى دهشة فرحة :

- (سيرجى) ؟!



واخترقت الرصاصة الزجاج الأمامى لسيارة (شلينكو) ، ونسفت جمجمة الروسى ..

خلص رجال المخابرات الروسية أسلحتهم ، فى نفس اللحظة التى برز فيها (سيرجى كوربوف) ، وهو يسير إلى جوار (أندريان) ، فى حين ظهر (أسعد) ، وهو يعدو نحو ثلاثتهم ، هاتفًا :

- أتمنى أن نكون قد وصلنا فى الوقت المناسب .

انتفض جسد (منى) ، وهى تهتف فى لهفة :

- أسرعوا بالله عليكم .. (قدرى) يحتضر ، و(أدهم) وشقيقه تحت ذلك الكوخ المحترق المنهار .

اتسعت عينا (أسعد) فى ارتياع ، وهو يهتف :

- يا إلهى ! يا إلهى !

أما (سيرجى) ، فقد انعقد حاجباه الكثّان فى شدة ، وهو يهتف برجال المخابرات الروسية :

- ماذا تنتظرون ؟! أحضروا طفايات الحريق من سياراتكم ، وحاولوا إطفاء هذه النيران .. وأنت هناك .. استدع سيارات الإطفاء والإسعاف .

وعاد يدير عينيه إلى (منى) و(ريهام) و(شريف) ، والدماء تنزف من أجسادهم قبل أن يستطرد فى حزم صارم :

- الكل يحتاج إلى إسعافات عاجلة .

غمغم (أندريان) ، وهو يقف إلى جواره فى عصبية :

- أتمنى أن تكون محقًا يا (سيرجى) ، فأنا أجازف بتاريخى ومستقبلى ، وكيانى كله ، مراهنًا على صدق قولك وإحساسك الغريزى .

أجابه (سيرجى) فى حزم :

- كلانا يفعل هذا ، من أجل (روسيا) يا رجل .

غمغم (أندريان) :

- بالتأكيد .

ثم استدرك فى صرامة :

- ولو أن ما تتوقعه حقيقىٌ ، فنحن نفعل هذا من أجل العالم كله الآن .

تمتم (سيرجى) ، وهو يتابع ما يفعله رجاله ، فى محاولة لإطفاء النيران :

- بالضبط .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (أسعد) يهتف فى انزعاج :

- رباه ! إنكم مصابون بشدة .

هتفت به (ريهام) :

- دعك منا .. المهم الأستاذ .

رفع (أسعد) عينيه إلى النيران ، التى خبت أو كادت ، عند الكوخ المنهار ، وهو يتمتم :

- كيف حدث هذا ؟!

صاحت به (منى) :

سنشرح لك كل شىء فيما بعد .. المهم أن نرى ماذا أصاب (أدهم) الآن .

تمتم (أسعد) فى حذر مرير :

- مع هذه النيران ، أخشى أن ..

صرخت به ، قبل أن يتم قوله :

- إياك أن تنطقها .

امتزجت صرختها بدوى أبواق سيارات الإسعاف ، التى تقترب من المكان ، واختلط بها دوى بوق سيارة إطفاء ، فدفنت (منى) وجهها بين كفيها ، وغمغمت ، وكل حرف من كلماتها يرتجف على شفتيها :

- ساعده يا إلهى ! ساعدهما .. لن أحتمل موتهما على هذا النحو ..

أما (شريف) و(ريهام) ، فلم ينبس أيهما ببنت شفة ، وهما يتطلعان إلى الدخان الكثيف ، الذى انبعث من بقايا الكوخ المحترق ..

فمع كثافته ولونه الأسود ، وما يعلمانه عن تلك الصومعة المغلقة أسفله ، كانا يشعران بأنه من المستحيل أن يظل أستاذهما وشقيقه على قيد الحياة هناك ..

من المستحيل تمامًا ..

* * *

ازدردت (زوشا) ، الحارسة الشخصية لزعيم (المافيا) الروسية (يورى إيفانوفيتش) ، لعابها فى صعوبة ، وانخفض صوتها على الرغم منها ، وهى تغلق هاتفها المحمول ، قائلة :

ـ المصريون ظفروا بـ (شلينكو) .

انعقد حاجبا (يورى) ، وهو ينفث دخان سيجارته الكثيف ، ذا الرائحة النفاذة ، فى سماء تلك الحجرة الصغيرة ، على مشارف (موسكو) ، وغمغم فى صرامة :

ـ كان ينبغى أن نتوقع هذا .

قالت (زوشا) فى دهشة :

ـ حقًا ؟!

التقط سيجارته بسبابته وإبهامه ، وتطلع لحظة إلى الدخان المتصاعد منها ، قبل أن يلقيها إلى ركن الحجرة ، قائلاً :

ـ نظامهم الأمنى كان يضع هذا الاحتمال فى الاعتبار .

سألته فى حذر :

ـ هل تعتقد أنه ينبغى أن نرسل شحنة أخرى إلى (مصر) ؟!

هز رأسه نفيًا ، وهو ينهض ، قائلاً :

ـ ليس هناك داع لهذا .

أدهشها قوله ، وتصورت لحظة أنه قد قرر التخلى عن عملية ضرب (القاهرة) ، لولا أن أضاف فى صرامة ، حملت رنة وحشية مخيفة :

ـ هناك بالفعل شحنة أخرى فى (مصر) .

اتسعت عيناها عن آخرهما ، وبدت مبهورة ، وهى تقول :

ـ حقًا ؟!

أشعل سيجارة أخرى ، وهو يرمقها بنظرة ساخرة ، قائلاً :

ـ ماذا أصابك هذه الأيام يا (زوشا) ؟! الدهشة

تملأ نفسك ، مع كل خطوة أخطوها ، وكأنك لا تثقين بعبقريتى .

هتفت بصدق :

ـ بل أثق بها تمام الثقة ، ولكنها مازالت تبهرنى فى كل مرة .

انطلقت منه ضحكة وحشية عالية ، قبل أن ينفث دخان سيجارته ، قائلاً فى تلذذ :

ـ بعد سقوط (شلينكو) ، وعثور المصريين على أسطوانات غاز الأعصاب ، فى حقيبة سيارته ، ستهدأ نفوسهم ، ويهدأ نظامهم الأمنى ، وتتراخى قبضتهم القوية .

والتقط نفسًا عميقًا آخر من سيجارته ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ وعندئذ ، يحين دور الضربة الثانية .

سألته فى لهفة :

ـ كيف ؟!

لوّح بيده ، وأجاب فى زهو مغرور :

ـ السيارة الثانية سيقودها عميل مصرى ، يعمل لحسابنا هناك .. سيوقفها فى قلب أشهر ميادينهم ، ويعدّها للتفجير الذاتى ..

قهقه مرة أخرى ، فى وحشية أكثر ، قبل أن يضيف :

ـ ستكون أسوأ مفاجأة ، فى تاريخهم كله .

سألته فى حذر ، لم يخل من لهفة :

ـ وكم سيبلغ عدد الضحايا فى رأيك ؟!

صمت طويلاً ، وهو ينفث دخان سيجارته ، ويراقبه فى استمتاع ، ثم لم يلبث أن أجاب ، وعيناه تتألقان على نحو رهيب :

ـ (القاهرة) كلها على الأرجح .

انتفض جسدها ، مع هول الجواب ، وهمّت بقول شىء ما ، لولا أن ارتفع رنين هاتفها المحمول بغتة ، فالتقطته فى سرعة ، قائلة :

ـ (زوشا) .. من المتحدث ؟!

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تستمع إلى محدثها ، وانقبضت عضلات ذراعيها القوية ، على نحو جعل (يورى) يسألها فى اهتمام :

- ماذا حدث ؟!

أنهت المحادثة ، والتفتت إليه ، قائلة فى انفعال :

- رجال المخابرات الروسية ، أنقذوا أسرانا المصريين .

التقى حاجباه فى شدة ، وهو يسألها :

- وماذا عن ذلك المصرى .. (أدهم صبرى) ؟!

ازدردت لعابها ، وهى تجيب :

- عميلنا يقول : إنه قد بقى داخل الصومعة ، وسط حريق هائل .

قال فى عصبية :

- داخل صومعة غلال (جياروف) .

أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت :

- لايمكن أن ينجو من حريق كهذا .. سيلقى مصرعه داخل الصومعة حتمًا .

ألقى سيجارته فى عنف ، وسحقها بقدمه قبل أن تكتمل ، وهو يقول فى غضب شديد :

- ليس بالضرورة .

كرر فى ذهول :

- ليس بالضرورة ؟!

نطقتها ، وهى تحدق فى وجهه ، بكل دهشة الدنيا ، وعقلها عاجز عن فهم ما يعنيه بعبارته هذه ..

عاجز تمامًا ..

* * *

- « الخطة نجحت تمامًا .. » ..

نطق وزير الداخلية العبارة فى ارتياح ، مع ابتسامة كبيرة ، وهو يراقب ، مع مدير المخابرات ، وعدد من

قيادات الجانبين ، عملية تأمين أسطوانات غاز الأعصاب ، تمهيداً لإعدامها بأسلوب آمن ، قبل أن يستطرد :

ـ من الواضح أن تعاوننا يؤتى ثماره جيداً ، فبإمكانياتكم المتطوّرة ، وخبرتنا فى مكافحة الجريمة ، يمكننا أن نصنع المستحيل !

قال مدير المخابرات :

ـ لاتنس توفيق الله (سبحانه وتعالى) ، فثانية واحدة كانت تكفى ، ليجذب ذلك الروسى تلك الذراع ، التى أضافها إلى سيارته ، فينطلق الغاز فى كل مكان .. لحظتها كان الله (عزّوجلّ) وحده يعلم ، كم من الضحايا سيتساقطون .

أومأ وزير الداخلية برأسه إيجاباً ، وقال :

ـ بالتأكيد .. لقد أنقذنا (سبحانه) من كارثة رهيبة .

ثم عاد يقول فى اهتمام :

ـ ولكن لو أننا واصلنا تعاوننا المثمر هذا ، فإننا

نستطيع تحطيم مافيا المخدرات ، خلال أقل من عام واحد .

ابتسم مدير المخابرات ، وهو يقول :

ـ كنت أتمنى هذا ، ولقد كانت لنا تجربة خارجية فى نفس المجال(*)، ولكن عملنا الأصلى يلتهم بالفعل كل وقتنا وجهودنا ، والأفضل أن يتفرّغ كلانا لعمله ، ولكن من يدرى ، ربما تعاوننا فى هذا الشأن مستقبلاً ، لو حتمت الأمور هذا .

غمغم وزير الداخلية :

ـ أتمنّى هذا .

برز أحد رجال المخابرات ، فى تلك اللحظة ، وهو يقول فى تردُّد :

ـ سيّدى المدير .. هناك أمر مازال يقلقنا ، على الرغم من نجاحنا فى إحباط عملية (شلينكو) .

(*) راجع قصة (امبراطورية السم) .. المغامرة رقم (١٥)

التفت إليه الرجلان ، وسأله المدير فى اهتمام قلق :

ـ وما هو ؟!

أشار الرجل بيده إلى سيارة (شلينكو) ، التى يتمّ فحصها بالفعل ، وهو يجيب فى توتر :

ـ المعلومات التى وردت لنا فى البداية ، عن وصول شحنة غاز الأعصاب إلى (مصر) ، والتى تحركنا من خلالها ، لضبط وإحباط العملية كلها ، كانت تتحدث عن سيارة كبيرة ، يفوق صندوقها بالتأكيد حقيبة سيارة (شلينكو) هذا ، ونظرًا لأنه من المعتاد أن يستخدم المهربون أقل حجم ممكن ومطلوب ، لتهريب ما لديهم عبر الحدود ، فمن غير المنطقى أن يستخدموا سيارة ذات صندوق كبير ، لنقل شحنة محدودة .

التقى حاجبا المدير فى شدة ، فى حين تساءل وزير الداخلية ، فى توتر شديد ، على الرغم من استيعابه لما يعنيه الرجل :

ـ وما الذى يمكن أن يشير إليه هذا ؟!

التقط رجل المخابرات نفسًا عميقًا ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ أنه مازالت هناك شحنة أخرى .

وهبط قوله هذا على الرءوس كالصاعقة .

وعاد القلق يتفجّر فى كل النفوس بلا استثناء ..

وبمنتهى العنف ..

* * *

اكتسى صوت (سيرجى كوربوف) بصرامة لامحدودة ، وهو يشير إلى سيارة الإسعاف ، التى تم نقل جسد (قدرى) إليها ، قائلاً لاثنين من رجال المخابرات ، من فريق زميله (أندريان) :

ـ اتصلا بالمستشفى ، بحيث تكون حجرة العمليات جاهزة للبدء ، فور وصوله ، وعليكما أن تحرساه وتحمياه بعمريكما ، ولو أصابه مكروه ، لن تجدا شبرًا واحدًا ، فى العالم كله ، يصلح لإخفائكما عنى .. هل تفهمان ؟!

أومأ الرجلان برأسيهما فى حزم ، فقال فى صرامة أكثر :

ـ هيا إذن .. دعنا لا نضيع ثانية أخرى .

قفز الرجلان إلى السيارة ، وهما يجريان تصفقهما ، والسيارة تطلق بوقها المميز ، وتنطلق بهما بالفعل ، مع جسد (فكرى) ، الذى يوليه طبيبها أفضل عناية ، فى حين استدار (سيرجى) إلى (منى) و(شريف) و(ريهام) ، قائلاً بنفس الصرامة ، وكأنه لايمتلك لهجة سواها :

ـ أمازلتم تصرون على البقاء ، حتى يتم رفع الأنقاض المحترقة .

مالت (منى) برأسها ، لتسمح لرجل سيارة الإسعاف الثانية ، بتضميد جرح عنقها ، وهى تقول فى حزم :

ـ لن نغادر ، حتى نعلم مصيره .

مط (سيرجى) شفتيه ، وتركها متجهاً إلى منطقة الكوخ المحترق ، الذى أطفأه رجال الإطفاء ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هذا شأنكم .

نقل (أندريان) بصره بينهم ، ثم لحق بـ (سيرجى) ، متسائلاً فى شىء من العصبية :

ـ من المستحيل أن يظل أى مخلوق على قيد الحياة ، تحت نيران كهذه .. أليس كذلك ؟!

غمغم (سيرجى) :

ـ من يدرى ؟!

ثم سأله فى اهتمام صارم :

ـ هل تثق برجالك هؤلاء ؟!

قال (أندريان) فى حدة :

ـ لايمكنك أن تثق بأى مخلوق ، فى هذه الأيام .

ثم استدرك فى سرعة :

ـ ولكنهم أفضل رجالى .

قلب (سيرجى) شفتيه ، قائلاً :

ـ أتمنى هذا .

شملهما الصمت بضع لحظات ، وهمـا يراقبـان عملية رفع أنقاض الكوخ ، قبل أن يقول (أندريـان) فى عصبية :

- المفترض أننا لم نصل فى الوقت المناسب ، قبل هبوطك فى (لينتجراد) ، وأننا نقلب الأرض الآن ، للبحث عنك وعن ذلك المصرى المرافق لك .. هذا ما أبلغنا به القيادة رسميًا .

قال (سيرجى) فى صرامة :

- لاتعتمد على هذا طويلاً، فذلك الحقير (كواليسكى) سيكشف اللعبة حتمًا .. وربما من خلال أحد أفضل رجالك هؤلاء .

قال (أندريان) ، فى عصبية أكثر :

- ينبغى إذن أن نتحرك بأقصى سرعة ، لا أن نضيع معظم الوقت ، فى انتظار أمل زائف .. ذلك المصرى الشيطان لقى مصرعه مع شقيقه حتمًا ، داخل تلك الصومعة .. دخان الحريق وحده يكفى لفعل هذا .

التقى حاجبا (سيرجى) الكثين ، وهو يقول :

- مع رجل مثل (أدهم) ، لايمكنك أن تتوقع شيئًا .

هتف (أندريان) فى حدة :

- إنه مجرد بشر .

ثم عاد يخفض صوته ، مستطردًا فى عصبية :

- ما الذى يمكن أن يفعله بشرى واحد ، حتى لو نجا من موقف كهذا ، فى خطر يهدد العالم كله .

أجابه (سيرجى) ، بكل صرامة الدنيا :

- الكثير ..

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان الرجال قد انتهوا من رفع آخر الأنقاض ، فهتف أحدهم :

- الصومعة أيها السادة .

لم يكد ينطقها ، حتى انتزعت (منى) نفسها من مسعفيها ، وانطلقت تعدو نحو الصومعة ، وخلفها (شريف) و(ريهام) ، والأخيرة تهتف :

- يارب ! يارب !

بلغ الجميع الصومعة ، فى وقت واحد تقريبًا ، وانحنت رءوسهم عبر فتحتها العلوية ، حيث انقشع الدخان أو كاد ، قبل أن تتسع عينا (أدريان) عن آخرهما ، وهو يهتف :

- مستحيل !

فأمام العيون الذاهلة ، وعلى الرغم من كل مايعرفون ، كانت صومعة (جاروف) للغلال خالية ..

خالية تمامًا .

* * *



٣ - رأس الفريق ..

انهار ذلك الكوخ المحترق دفعة واحدة ، فوق فتحة الصومعة العلوية ، وامتلأ المكان بدخان كثيف ..

كثيف إلى درجة لايمكن أن يحتملها بشر ..

أى بشر ..

وبكل قوته ، كتم (أدهم) أنفاسه ، وهو ينتزع من جيبه منديلاً ، أحاط أنف وفم شقيقه الوحيد ، وهو يقول فى توتر :

- ساعده يا إلهى ! كم أتمنى لو دفعت حياتى ثمنًا لحياته .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى ارتفع فى المكان سعال عنيف ، امتزج بصوت (زيون) ، الذى استعاد وعيه ، وراح يهتف فى عصبية بالغة :

- النفق .. فلنفر عبر النفق .

استدار إليه (أدهم)، ووثب نحوه، ليجذبه من عنقه في قسوة، هاتفًا بكل لهفته، وبآخر أمل في كيانه:

- عن أي نفق تتحدث أيها الوغد .

حاول (زيون) أن يتملّص منه، ليندفع نحو الجدار المقابل، صائحًا في رعب:

- النفق السري .. كيف نقلنا صديقكم البدين إلى هنا في رأيك ؟!

انعقد حاجبا (أدهم)، وهو يفلته، وراقبه وهو يندفع نحو الجدار، ثم ينحني ليضغط جزءًا خفيًا في ركنه، وهو يسعل .. ويسعل .. ويسعل ..

ومع ضغطته، انزاح جزء من الجدار، من المستحيل أن تلمحه العين الفاحصة، ليكشف خلفه ممرًا طويلاً، أضيئت مصابيح على طول سقفه، فور انكشافه ..

ودون أن يضيع لحظة واحدة، حمل (أدهم) شقيقه (أحمد) على كتفه، واندفع عبر تلك الفتحة في الجدار، وألسنة اللهب تمتزج بالدخان الكثيف، الذي غمر المكان كله ..

وفور عبوره، أغلق المكان خلفه آليًا، وبدأت شفاطات قوية عملها، لتنقية المكان من الدخان، في حين استدار (زيون) إلى (أدهم) بكل شراسة الدنيا، وهو يقول في وحشية:

- هل تتصوّر أنك سترافقني أيها المصري ؟!

وبحركة سريعة، اختطف مدفعًا آليًا معلقًا على الجدار، وأدار فوهته نحو (أدهم)، وهو يضيف:

- إننا سنفترق هنا .

كان (أدهم) مجهدًا بشدة، ويحمل شقيقه على كتفيه، إلا أن فوهة المدفع لم تكد تستدير نحوه، حتى وثب هو بخفة مدهشة، وركل المدفع من يد (زيون) بقدمه اليمنى، هاتفًا:

- أنت على حق .

وقبل أن تعود قدمه اليمنى إلى الأرض، كانت اليسرى تثب عاليًا، وتركل أنف (زيون) مباشرة، وهو يكمل:

- سنفترق هنا .

شعر (زيون) العملاق بالركلة كالقنبلة فى أنفه ، وتفجّرت منه الدماء الساخنة ، لتغمر وجهه كله تقريبًا ، فصرخ بغضب هادر ، وهو ينقض على (أدهم) :

- كيف جرؤت أيها الـ ...

لم تكن عبارته قد اكتملت ، عندما فوجئ بلكمة كالمطرقة فى أسنانه ، وثانية كالصاعقة فى معدته ، فانثنى جسده كله ، وهو يهتف :

- مستحيل !

فبالنسبة إليه ، لم يكن يشك لحظة فى أنه سيفترس خصمه هذا بلا هوادة ، إذ كان (أدهم) يحمل شقيقه ، وكان من المستحيل ، من وجهة نظر (زيون) ، أن يمكنه صد خصم عملاق قوى مثله ..

ولكن (أدهم) فعلها ..

ودون أن يسقط شقيقه (أحمد) أرضًا ..

وبضربة ثالثة أخيرة ، هوت قبضته على مؤخرة

عنق (زيون) ، ليطلق هذا الأخير خوارًا كالثور ، ويسقط على وجهه فاقد النطق ..

وبسرعة ورفق ، وضع (أدهم) جسد شقيقه أرضًا ، وهو يغمغم :

- رباه ! لقد ساعدتنا كثيرًا .. فلتبق على حياته ياربى .. أرجوك .

مال يلصق أذنه بصدر شقيقه ، وأغلق عينيه فى ارتياح غامر ، مع صوت نبضات قلبه ، فاعتدل يغمغم :

- إنه حى .. حمدًا لله .. حمدًا لله ..

وبكل جهده وخبرته ، راح يجرى لشقيقه كل الإسعافات الأساسية ، وعمليات التنفس الصناعى اليدوية ، حتى انتفض جسد (أحمد) ، وراح يسعل ، فاعتدل (أدهم) ، وانطلقت من أعمق أعماق صدره تنهيدة ارتياح ، وهو يغمغم :

- حمدًا لله .. حمدًا لله ..



ثم حمل شقيقه ، ووضعه داخل العربة الكهربائية ، قبل أن يثب إليها ، وينطلق بها ، عبر ذلك النفق ..

ولأوَّل مرة ، وبعد أن اطمأن إلى نجاة شقيقه ، راح يتطلَّع إلى ذلك الممر الطويل ، الممتدّ أمامه ..

كان من الواضح أنه نفق سرى ، معدّ للفرار ، فى حالات الطوارئ ، فقد كان يمتدّ إلى مدى البصر ، وعلى أرضيته قضيبان كقضبان السكك الحديدية ، فوقهما عربة كهربائية صغيرة ..

وغمغم (أدهم) ، وهو يدير عينيه إلى الجدار ، حيث عبر منذ دقائق قليلة :

- أتعشَّم أن يكون طريق الخروج من هنا قريبًا ؛ فـ (قدرى) و (منى) وفريقى مازالوا يحتاجون إلى معاونتى .

قالها ، ثم حمل شقيقه ، ووضعه داخل العربة الكهربائية ، قبل أن يثب إليها ، وينطلق بها ، عبر ذلك النفق ، وهو يجهل ، إلى أين يمكن أن تقوده ..

يجهل تمامًا ..

* * *

« أين ذهبوا ؟! » ..

هتفت (منى) بالعبارة ، فى دهشة عصبية ، وهى تجلس داخل سيارة (أندريان) ، التى يقودها بنفسه ، وإلى جواره (سيرجى) ، نحو المستشفى ، الذى تم نقل (قدرى) إليه ..

وفى حزم صارم ، أجابها (سيرجى) :

ـ إننا لم نعثر على أية جثث محترقة ، بخلاف جثث قتلة (المافيا) ، الذين رأيتموهم بأنفسكم .. الصومعة كانت خالية تمامًا ، ولا توجد أية جثث داخلها ، ولقد فتشنا المنطقة كلها ، ولم نعثر لهما على أدنى أثر ، وهذه علامة طيبة ، فى كل الأحوال .

غمغمت (ريهام) فى استنكار عصبى :

ـ طيبة ؟!

أجابها (سيرجى) ، فى صرامة أكثر :

ـ بكل تأكيد .. لقد نجا أستاذكم بوسيلة ما ، سيتوصل إليها رجالنا حتمًا ، عندما ينتهون من فحص المكان بمنتهى الدقة .

بدا صوت (شريف) مفعمًا بالحماسة والأمل ، وهو يقول :

ـ إننى أتفق معك تمامًا يا كولونيل (كوربوف) .. العقل والمنطق يؤكدان هذا .

هتفت (منى) :

ـ ولكن كيف ؟! كيف ؟!

أشار (سيرجى) بيده ، وهو يقول :

ـ سنترك إجابة هذا السؤال للخبراء ، أما الآن ، فكلكم تحتاجون إلى إسعاف عاجل ، قبل أن نبدأ عملنا المشترك ؛ لمواجهة كارثة غاز الأعصاب ، التى تهدد العالم كله ، والتى ...

كانت السيارة تنحرف فى تلك اللحظة ، لتواجه المستشفى تمامًا ، عندما بتر الكولونيل (سيرجى كوربوف) عبارته دفعة واحدة ، ليعتدل فى مقعده بحركة حادة ، ويهتف :

ـ مستحيل !

مع هتافه ، اتسعت عينا (منى) عن آخرهما ، وانطلقت من حلقها وقلبها شهقة قوية ، فى حين انتفض جسد (شريف) ، ومال برأسه إلى الأمام ، غير مصدق لما تراه عيناه ، وزميلته (ريهام) تصرخ :

- الأستاذ . .

فعلى مسافة مائة متر فحسب منهم ، وأمام باب قسم الطوارئ بالمستشفى ، كان (أدهم) فى هيئة مزرية ، يعاون رجال الإسعاف على نقل شقيقه الدكتور (أحمد) إلى محفة كبيرة ، وهو يقول فى حزم صارم ، وبلهجة آمرة قوية ، ولغة روسية سليمة ، وكأنه صاحب الحق الأوّل ، فى إدارة المكان كله :

- لقد استنشق كمية كبيرة من الدخان ، ويحتاج إلى إسعاف عاجل .

وعلى الرغم من إصاباتها ، وثبت (منى) من السيارة ، قبل حتى أن تتوقّف ، واندفعت بكل كيانها ولهفتها نحوه ، صارخة :

- (أدهم) .. حمدًا لله .. حمدًا لله .

استقبلها (أدهم) بابتسامة ، وعيناه ترصدان سيارة (أندريان) ، التى هبط منها هذا الأخير ، ومعه (سيرجى كوريوف) ، فى حين راح (شريف) و(ريهام) يجران أقدامهما المصابة نحوه ، بكل لهفة وفرح الدنيا ، و(منى) تكمل بدموعها :

- أنت بخير .. حمدًا لله .. أخبرنى كيف حدث هذا .

لم يرفع عينيه عن (أندريان) و(سيرجى) ، اللذين يتجهان إليه ، بوجهيهما الجامدين الباردين ، فى حين اندفع (شريف) و(ريهام) يهنئانه بالنجاة ، فسألهما فى هدوء حازم :

- ماذا عن (قدرى) ؟!

أجابته (منى) فى فرح :

- إنهم يجرون له جراحة عاجلة الآن ، ولقد اتصل بهم الكولونيل (كوريوف) من السيارة ، فأكدوا أنه سيتجاوز هذه الأزمة بإذن الله (سبحانه وتعالى) ورعايته .

أغلق عينيه ، مغمغمًا :

ـ حمدًا لله .

اخترق أذنيه صوت (سيرجى) الصارم ، وهو يقول :

ـ مازلت كما أنت أيها المصرى .. تشغلك كثيرًا أحوال الآخرين ، حتى لتجازف بالظهور علانية ، فى سبيل إنقاذهم .

فتح عينيه يتطلّع إلى وجه (سيرجى) ، الذى ارتسم على شفتيه شبح ابتسامة باهتة ، وهو يكمل :

ـ لهذا يشرفنى دومًا أن أعمل إلى جوارك .

قالها ، وهو يمدّ يده إلى (أدهم) ، فشدّ هذا الأخير قامته ، وصافحه فى قوة ، وهو يقول فى حزم :

ـ يسعدنى كثيرًا أن أراك على قدميك مرة أخرى يا كولونيل .

بدا صوت (سيرجى كوربوف) باردًا قاسيًا ، وهو يقول :

ـ لا تجعل هذا يخدعك أيها الزميل المصرى ، فلولا بقايا من الكبرياء ، لسقطت على ركبتىّ من فرط الألم .

وعلى الرغم من صوته ولهجته ، علت الابتسامة وجوه الجميع ، الذين أدركوا أن هذه اللحظة تمثّل نقطة تحول قوية فى الصراع ..

الصراع مع الذئاب ..

ذئاب البشر ..

* * *

احتقن وجه (جوزيف كوالسكى) فى شدة ، وهو يلوّح بذراعه ، فى وجه مدير المخابرات الروسية ، هاتفًا فى حدة :

ـ إنهم يخدعوننا حتمًا .. الكولونيل (أندريان) يتجاهل اتصالاتى اللاسلكية المباشرة ، ورجاله يدعون أنهم مازالوا يبحثون عن الكولونيل (سيرجى) ورفيقه المصرى .

التقى حاجبا المدير ، وقد أحنقه أن يتصرف (كواليسكى) ، أمامه ، بهذا القدر من عدم اللياقة ، وقال فى خشونة :

ـ ولماذا تتصور أنهم يخدعوننا ؟! إنهم رجال مخابرات ، وكلهم يؤدون واجبهم دومًا بإخلاص .

هتف (كواليسكى) :

ـ ولكن مصادرى تؤكد أن ذلك المصرى (أسعد) ، والذى كان يرافق (كوربوف) ، قد ظهر فى أحد شوارع (لينينجراد) الرئيسية ، وليست لدى ذرة واحدة من الشك ، فى أنه الآن داخل أحد المنازل الآمنة ، التابعة للمخابرات المصرية هناك .

تضاعف غضب المدير وسخطه ، مع استمرار الجنرال (كواليسكى) فى أسلوبه الفظ ، فمال إلى الأمام بحركة حادة ، قائلاً :

ـ دع الرجال يعملون يا (كواليسكى) .

تراجع (كواليسكى) ، مرددًا فى دهشة :

ـ أدعهم ماذا ؟!

صاح به المدير ، فى صرامة غاضبة ، وهو ينهض من مقعده فى عنف :

ـ دعهم يعملون ، ويبحثون عن الكولونيل (كوربوف) ، فهذه ليست قضيتنا الأولى الآن .. إننا نواجه كارثة رهيبة ، ومنظمة مجهولة مجنونة ، تهدِّد العالم كله بالفناء ، لو لم يستجب لمطالب لم تعلنها بعد ، ومن المحتم أن تتركز جهودنا كلها حول هذا وحده .. هل تفهم ؟! هذا وحده .

حنق (كواليسكى) فى وجهه ، وهو يتمتم :

ـ نعم .. أفهم .

ثم عاد يندفع ، مستطردًا فى حدة :

ـ ولكن ماذا لو أن خيانة الكولونيل (كوربوف) ، ترتبط ارتباطًا وثيقًا ، بعملية غاز الأعصاب ؟!

سأله المدير فى حدة :

ـ هل يمكنك أن تثبت هـذا ، على نحو لايمكن أن يتطرق إليه الشك ؟!

صدم السؤال (كوليسكى) ، فغمغم فى عصبية :

ـ لو أنك أسندت إلىّ العملية مباشرة ، فمن الممكن أن ..

قاطعه المدير فى صرامة :

ـ كلا .

والتقط نفسًا عميقًا ، للسيطرة على أعصابه الثائرة ، قبل أن يضيف بمنتهى الصرامة والحزم :

ـ سأتولى هذه العملية بنفسى .

وانعقد حاجبا الجنرال (جوزيف كوليسكى) بشدة ..

فهذا التحول المفاجئ كفيل بقلب الأمور كلها رأسًا على عقب ..

وبعنف ..

* * *

« الجميع بخير أيها السادة .. » ..

نطق كبير أطباء ذلك المستشفى فى (لينينجراد) العبارة ، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة ، قبل أن يتابع :

ـ لقد استخرجنا الرصاصات من أجسادهم ، والسيد (قدرى) تجاوز مرحلة الخطر ، وبدانته أنقذته من موت محتم ، أما الدكتور (أحمد) ، فقد تمت تنقية رئتيه ، وهو نائم الآن ، بتأثير بعض العقاقير ، ولكنه سيستيقظ سليمًا معافى فى الغد .

غمغم (أدهم) ، وهو يستبدل قميصه بآخر نظيف :

ـ حمدًا لله .

تنهّد الطبيب الروسى ، وقال :

ـ المشكلة أن الشاب والمرأة ، والفتاة الشابة أيضًا ، يرفضون البقاء تحت الملاحظة فى المستشفى ، ويصرّون على اللحاق بكم هنا و ...

قاطعته (منى) ، وهى تتجاوزه ، قائلة فى حزم :

ـ ولن تثنيهم أية قوة فى الوجود عن هذا .

أضافت (ريهام) ، وهى تتبعها :

ـ بكل تأكيد .

أما (شريف) ، فقد دفع الطبيب فى رفق إلى الخارج ، قائلاً فى صرامة :

ـ والآن اتركنا وحدنا ، فمن المؤكَّد أنه لكل دقيقة ثمنها .

انعقد حاجبا (أندريان) ، وهو يقول فى حدة :

ـ ماذا يحدث هنا ؟! الكل يتصرَّف ، وكأنه لم يعد لسلطتنا وجود هنا .

أشار إليه (سيرجى) فى صرامة ، قائلاً :

ـ لا تجعل هذا يشتت فكرك الآن .

ثم التفت إلى (أدهم) ، مستطرداً بنفس اللهجة :

ـ والآن يا (أدهم) .. لقد أخبرتك كل ما لدينا ، وأنتظر رأيك .

التقط (أدهم) نفساً عميقاً ، وهو يعقد رباط عنقه ، قبل أن يلتقط سترته ، قائلاً :

ـ من الواضح أن الأمور تتطوَّر بسرعة مخيفة ، وأن شهية (يورى إيفانوفيتش) قد اتسعت ، ولم تعد تكتفى ، مهما أراق من دماء ، أو أزهق من أرواح .

قالت (منى) :

ـ أمر طبيعى ، مادام قد لحق بكل من سبقه ، من المجانين والحمقى ، الذين سعوا للسيطرة على العالم .

أشار (أدهم) بسبَّابته ، قائلاً فى حزم :

ـ ولكن (يورى) يمتلك مزيتين ، لم يحظ بهما أى مجنون أو أحمق من قبله ؛ فهو يمتلك سلاحاً كيماوياً رهيباً ، يمكنه بوساطته السيطرة على العالم بالفعل .

سأله (سيرجى) فى اهتمام :

ـ وماذا عن المزية الثانية ؟!

أجابه فى حزم أكثر :

ـ أنه لا يوجد دليل إدانة قوى ضده .. فقط ثقتنا بأنه المسئول عن كل هذا .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف ، وعيناه تشردان بعيداً :

ـ هناك مزية ثالثة أيضا ، وهى أنه لا أحد ، فى العالم كله ، يمكنه أن يحدّد موقعه ، فى أية لحظة ؛ فهو لا يستقر قط فى أى مكان كان .

قال (أندريان) فى عصبية :

ـ ولكننا لو لم نثبت إدانته ، ونظفر به بأقصى سرعة ، فستنقلب الدنيا كلها على رءوسنا .. وبلا رحمة .

شردت عينا (أدهم) بضع لحظات أخرى ، قبل أن يغمغم :

ـ وسيدفع الملايين ثمنا فادحا أيضا .

كان من الواضح أن فكره يعمل بأقصى طاقته ، فى

محاولة لإيجاد حل لتلك المعضلة ، فاحترم الجميع صمته ، ولاذوا بالصمت بدورهم ، وعيونهم تتطلع إليه ، بكل اللهفة والاهتمام ..

أما هو ، فقد كان عقله يلتهب ، وهو يدرس كل شىء مرة أخرى ..

كل الظروف ..

والملابسات ..

والمعطيات ..

والمعلومات ..

كل شىء ..

كانت فرصة نادرة ، تتاح له ولفريقه ، بعد صراع طويل عنيف ..

لقد استعاد رفاقه ، وتآزر مع فريق "منشق ، من المخابرات الروسية ، ولابد أن يبذل قصارى جهده ، للاستفادة من هذا الموقف ، وتحقيق أكبر إنجاز ممكن منه ، بأقصى طاقته ..

واسرع وقت ممكن ..

فكل ثانية قادمة ، قد تعنى حياة البشر ..

الملايين من البشر ..

وغرق (أدهم) فى تفكير عميق ..

عميق إلى أقصى حد .

ولم يتحرك مخلوق واحد فى الحجرة ، وكأنما تحولوا جميعًا ، فى أثناء تفكيره العميق ، إلى تماثيل من الرخام ، شخصت بأبصارها كلها إليه ..

ثم فجأة ، استدار (أدهم) إليهم ..

وبكل حزم وحسم ، قال :

ـ (سيرجى) .. أريد أكبر قدر ممكن من المعلومات ، عن (يورى إيفانوفيتش) هذا : صوره .. تسجيلاته .. اهتماماته .. كل شىء ممكن .

قال (سيرجى) فى حزم :

ـ لايمكننى هذا بصفة رسمية ، فى ظروفى الحالية ،

ولكن زميلى (أندريان) يمكنه أن يحصل على ما تريد .

قال (أدهم) فى صرامة :

ـ عظيم .. أريد ملف (يورى) هذا ، بأقصى سرعة ممكنة ، كما أريد وضع حراسة مشددة على (أحمد) و(قدرى) هنا ؛ فلو ظفر بهما ذلك الوحش ثانية ، سيحبط مخططنا كله .

قال (أندريان) فى حسم :

ـ اطمئن .. الفريق الذى تركته لحراستهما ، مستعد للموت ألف مرة ، على التخلى عنهما .

تنهد (أدهم) ، قائلاً :

ـ عظيم .. الآن علينا أن نستعد للعودة إلى (موسكو) ، بأسرع وسيلة ممكنة .

سألته (منى) فى اهتمام :

ـ وما الذى ستفعله هناك بالضبط ؟!

ارتسمت على شفتيه تلك الابتسامة الساخرة ، التى طال اشتياقها لرؤيتها ، وهو يجيب :

- سندفع الذئب إلى الخروج من مكمنه .

سألته (ريهام) فى شغف :

- وكيف يمكننا أن نفعل هذا ؟!

مال (أدهم) نحوها ، وقد اتسعت ابتسامته الساخرة ، وتألقت عيناه على نحو عجيب ، وهو يجيب :

- سنجعله ، ولأول مرة ، يواجه نفسه .

لم يفهم (أندريان) مايعنيه هذا ، ولكنه تطلّع إلى (أدهم) فى صمت ، ودون أن ينبس ببنت شفة ..

فعلى الرغم من وسامة (أدهم) ، وابتسامته الساخرة ، بدا له أشبه بعملاق مهيب ..

عملاق من (مصر) ..

* * *

لم يبد الجنرال (كواليسكى) فى حياته كلها أكثر عصبية ، مما بدا عليه فى تلك المرة ، وهو يجلس أمام (يورى) ، داخل كابينة يخت قديم ، فى قناة (موسكو) ، قائلاً :

- الأمور تفلت من بين أصابعنا يا (يورى) .. المدير قرّر أن يتولّى عملية غاز الأعصاب بنفسه ، و(سيرجى كوربوف) استعاد عافيته ، ودس أنفه مرة أخرى فى الأمر ، وعندما اتهمته بالخيانة ، والعمالة لكم ، اختفى تمامًا ، ولم أعد أعلم حتى أين هو .

نفث (يورى) دخان سيجارته ، وهو يقول فى هدوء صارم :

- فى (لينينجراد) .

انعقد حاجبا (كواليسكى) فى شدة ، وهو يقول :

- رجالنا هناك لم يعثروا له على أثر .

اعتدل (يورى) دفعة واحدة ، وهو يصرخ فى وجهه :

- غبى !

انتفض (كواليسكى) على مقعده ، واتسعت عيناه فى ذعر مستنكر ، وهو يقول :

ـ ماذا ؟!

هبَّ (يورى) من مقعده بحركة حادة ، انتفض لها جسد (كواليسكى) مرة أخرى ، واعتدلت معها (زوشا) ، ممسكة بمقبض مسدسها فى تحفز ، وزعيمها يقول فى غضب :

ـ رجالكم لم يبحثوا عن الكولونيل (كوربوف) أبدًا ؛ لأنهم قد عثروا عليه بالفعل ، فور هبوطه فى (لينينجراد) .

اتسعت عينا (كواليسكى) ، وهو يهتف :

ـ مستحيل ! إنهم ..

قاطعه (يورى) بإشارة صارمة من يده ، متابعًا بنفس الغضب :

ـ ولكنهم تحالفوا معه ، وأخفوا الأمر عنكم .. ليس هذا فحسب ، وإنما التقوا أيضًا بذلك المصرى (أدهم

صبرى) ، فى مستشفى (لينينجراد) ، وعقدوا معه ومع فريقه اجتماعًا مغلقًا ، غادر (سيرجى) بعده المكان بصحبة (أدهم) وفريقه ، إلى جهة غير معلومة .

حمل صوت (كواليسكى) الكثير من ذهوله ، وهو يقول :

ـ كيف علمت هذا ؟!

استدار إليه (يورى) ، بحركة حادة وحشية ، وهو يقول :

ـ أنا أعلم كل شىء .

تجمَّد (كواليسكى) بضع لحظات على مقعده ، وهو يحدِّق فى وجه (يورى) ، ثم لم يلبث أن هتف فى عصبية :

ـ ليس كل شىء .

ثم هبَّ واقفًا بدوره ، ليضيف فى لهجة ، حملت رائحة شماتة قوية :

ـ إنك تجهل أين هم الآن .

التقى حاجبا (يورى) ، على نحو جعله أشبه بالشيطان ، وهو يقول ، بكل صرامة ووحشية الدنيا :

ـ هنا .. فى (موسكو) .

انتفض جسد (كواليسكى) مرة أخرى فى عنف ، وهو يكرر :

ـ فى (موسكو) ؟!

أجابه (يورى) بنفس الصرامة الوحشية ، وهو يلقى سيجارته فى القناة بعنف غاضب :

ـ كان ينبغى أن تستنبط هذا أيها الأحمق .

احتقن وجه (كواليسكى) فى شدة ، وراح جسده يرتجف بضع لحظات ، قبل أن يقول فى عصبية شديدة :

ـ فليكن يا (يورى) .. سأطلق كل رجل من رجالى فى (موسكو) ، وعليك أن تفعل المثل ؛ فلو أنهم هنا ، فمن الضرورى أن نظفر بهم بأقصى سرعة .

وانتفض جسده مع كلماته ، وهو يضيف :

ـ وبأى ثمن .

نطقها ، واندفع يغادر المكان كالعاصفة ، فغمغمت (زوشا) :

ـ توقعت لحظة أنك ستأمرنى بالتخلص منه .

أجابها فى صرامة ، وهو يشعل سيجارة جديدة :

ـ سأفعل ، بعد أن ننتهى من هذه العملية .

عاد يجلس على مقعده ، وينفث دخان سيجارته الجديدة ، ذات الرائحة النفاذة القوية ، فى حين ألقت (زوشا) نظرة عبر النافذة ، على الشمس التى تشرق فى الأفق ، قبل أن تسأله فى حذر :

ـ كيف علمت أنهم هنا فى (موسكو) ؟! إننا لم نتلق أية معلومات فى هذا الشأن !!

مط شفتيه ، وأشعل جهاز التلفاز أمامه ، وهو يقول :

ـ استنتاج منطقى ؛ فـ (موسكو) هى أرض الصراع

الرئيسى ، وهم من الذكاء ، بحيث يدركون أنه هناك عبقرى واحد ، فى الكون كله ، يمكن أن يخطط لعملية غاز الأعصاب هذه ..

وتألقت عيناه ببريق جنونى وحشى ، وهو يشير إلى صدره ، مكملاً :

ـ أنا .

رمقته (زوشا) بنظرة صامتة ، أطل منها كل القلق الذى يعتمل فى نفسها ، و ...

« صباح جديد يا (روسيا) .. » ..

انبعث الصوت فجأة ، من سماعات التلفاز المجسمة ، مقترنًا بصورة (ناديا فيدروفيتش) على الشاشة ، فاعتدل (يورى) بحركة حادة ، فى حين هتفت (زوشا) فى دهشة عصبية :

ـ عجبًا ! كيف يمكنها أن تظهر على الشاشة اليوم ؟! أليس من المفترض أنها ..

صاح بها (يورى) فى غلظة شرسة :

ـ اصمتى .

أطبقت شفتيها على الفور ، والتقى حاجباها فى توتر شديد ، وهى تحدق فى الشاشة ، فى حين نفث هو دخان سيجارته فى قوة وعصبية ، وهو يتساءل :

كيف يمكن أن تفعل (ناديا) هذا ؟!

المفترض أن كل أجهزة الأمن فى (موسكو) تبحث عنها الآن ، بتهمة التآمر على إثارة الذعر العام !!

كيف ؟!

كيف ؟!

وعلى الشاشة ، واصلت (ناديا) بابتسامة كبيرة ، وكأنه لايوجد فى الدنيا كلها ما يقلقها :

ـ أعلم أن ظهورى الآن سيدهشكم جميعًا ، وخاصة بعد تلك الأنباء السخيفة ، عن تورطى فى مؤامرة إعلامية كبيرة .

والتقطت نفسًا عميقًا ، قبل أن تتسع ابتسامتها ، وهى تتابع :

ـ والواقع أننى هنا ، لأقدّم إليكم ـ كما اعتدت ـ لقاءً مثيرًا للغاية ، فى أوّل ساعات البث ..

غمغمت (زوشا) :

ـ تُرى أى لقاء هذا الذى ..

قاطعها (يورى) مرة أخرى ، بثورة وحشية :

ـ قلت : اصمتى .

عضت شفتها السفلى فى غيظ ، فى حين انتبه هو إلى الشاشة بكل حواسه ، والكاميرا تتراجع ؛ ليتسع المشهد أكثر ، و(ناديا) تشير بيدها إلى الضيف الجالس إلى جوارها ، مستطردة :

ـ لقاء سيدهشكم جميعًا ، بلا استثناء .

وما إن نقلت الشاشة صورة ذلك الضيف ، الذى يجلس إلى جوارها ، حتى اتسعت عينا (زوشا) ،

حتى كادتا تثبان من محجريهما ، فى حين وثب (يورى) بالفعل من مقعده ، وسقطت سيجارته من بين شفتيه ، وهو يطلق شهقة غضب واستنكار عنيفة ..

فمهما جال بخياله وفكره ، وحتى بعبقريته ذات اللمحة الجنونية ، كان من المستحيل أن يستنتج هوية ذلك الضيف ..

من المستحيل تمامًا ..

وبكل المقاييس .

* * *

٤ـ الذهـول ..

« هذا مستحيل تمامًا !! » ..

نطق وزير الداخلية العبارة فى يأس واضح ، وهو يراجع كل التقارير ، الواردة من كل مكان فى (مصر) ، ثم يضعها على سطح مكتب مدير المخابرات ، ويهزّ رأسه ، مستطردًا :

ـ لا يمكننا تفتيش كل سيارة فى (مصر) ، مهما بذلنا من جهد ، أو استعنا بالرجال ، فهناك ما يقرب من مليون سيارة ، تتحرك فى شوارع (القاهرة) ، على مدار اليوم(*)، ومن الواضح أنهم قد أحسنوا اللعبة بعبقرية مدهشة ، ففى الوقت الذى نظفر فيه بالشحنة الأولى ، تمرّ الثانية إلى هدفها فى سلام .

ألقى مدير المخابرات نظرة على ساعته ، قائلاً فى حزم :

ـ ولكنها لم تُستخدم بعد لسبب ما .

(*) حقيقة ..

قلب وزير الداخلية كفيه ، قائلاً فى مرارة :

ـ إنهم يستطيعون استخدامها ، فى أية لحظة الآن .

التقط المدير نفسًا عميقًا ، وهو يغمغم :

ـ يا له من موقف !

لم يكد ينطق عبارته ، حتى دلف أحد معاونيه إلى المكان ، ولوّح بورقة فى يده ، قائلاً فى توتر :

ـ سيدى .. لقد وصلتنا برقية شفرية عاجلة ، من وحدة المراقبة الرئيسية فى (موسكو) .

أشار إليه المدير ، وهو يتساءل فى اهتمام قلق :

ـ هل من جديد ؟!

اتجه المعاون نحوه ، مجيبًا :

ـ إنه سيادة العميد (أدهم) .. لقد أقدم على خطوة عجيبة للغاية !

التقط المدير البرقية الشفرية ، وهو يغمغم :

ـ كل ما يقدم عليه (ن ـ ١) عجيب للغاية فى المعتاد .

قالها ، وهو يفضّ البرقية ، ولكنه لم يكد يلقى نظرة على محتوياتها ، حتى انتفض جسده كله فى عنف ، وهتف :

ـ ماذا ؟!

سأله وزير الداخلية ، فى مزيج من اللهفة والقلق :

ـ ماذا هناك ؟!

رفع المدير عينيه إليه ، وهو يهتف ، بصوت حمل كل دهشة الدنيا :

ـ لن تصدّق هذا أبدًا .

ولقد كان على حق تمامًا ، فى قوله هذا ..

فما فعله (أدهم) لم يكن قابلاً للتصديق ..

أبدًا ..

* * *

كل ذرة فى كيان الجنرال (كوليسكى) كانت ترتجف ، من فرط الغضب والسخط ، وهو يدلف إلى مكتبه ،

فى تلك الساعة المبكرة ، بعد عودته من لقائه مع (يورى) ، وهو يغمغم فى عصبية :

ـ هنا ؟! فى (موسكو) ؟! مستحيل ! لا يمكن أن يكون ذلك المجنون على حق ! لا يمكن .

ألقى جسده على ذلك المقعد الوثير خلف مكتبه ، والذى بدا له أشبه بحجر صلد صلب(*) ، وهو يتابع ، فى عصبية أكثر :

ـ لو أنهم وصلوا إلى (موسكو) ، بأية وسيلة كانت ، لعلمت هذا على الفور .

ثم لوّح بذراعه كلها فى غضب ، صائحًا :

ـ ما فائدة كل العيون ، التى تعمل لحسابى فى (موسكو) إذن ؟!

مع آخر حروف كلماته ، اندفع الكولونيل (بافلوف) إلى حجرته ، هاتفًا :

ـ (يورى) على شاشة التلفاز .

(*) الصلابة : هى مقاومة المادة للكسر أما الصلادة ، فهى مقاومة المادة للخدش ، وقدرتها على خدش غيرها من المواد ، لذا فالفولاذ أكثر صلابة من الماس ، ولكن الماس أكثر صلادة منه .



حدّق (كواليسكى) فى شاشة التلفاز ، وقد بدا عليها (يورى إيفانوفيتش) ، فى زى أنيق ..

وثب (كواليسكى) من مقعده ، وهو يهتف بصوت أقرب إلى الصراخ :

ـ ماذا ؟!

اختطف (بافلوف) جهاز التوجيه عن بعد ، وأشعل التلفاز ، وهو يقول فى عصبية أكثر :

ـ لن يمكنك أن تصدق من تستضيفه ! إنها (ناديا فيدروفيتش) التى نبحث كلنا عنها .

حدّق (كواليسكى) ، فى شاشة التلفاز ، وقد بدا عليها (يورى إيفانوفيتش) ، فـى زى أنيق ، وهو يجلس إلى جوار (ناديا) ، التى تسأله بابتسامتها الساحرة :

ـ سيّد (يورى) .. يقولون فى الشارع : إنـك الزعيم الفعلى لمنظمة (المافيا) الروسـية ، أو كمـا يطلقون عليك (الأب الروحى) لها .. أهذا صحيح ؟!

غمغم (كواليسكى) فى حنق :

ـ لقد جُن ذلك الرجل حتمًا ! ما الذى يسعى لفعلـه بالضبط ، بهذه المقابلة الهزلية ؟!

مع عبارته ، كان الجالس إلى جوار (ناديا) يجيب ، بصوت ولهجة (يورى) :

ـ لا شأن لى بما يقوله الشارع ، ولكننى أعتقد أننى من الذكاء والعبقرية والحكمة ، بحيث أصلح لهذه الزعامة تمامًا ، فباقى زعماء (المافيا) يتميزون بالجهل والسخافة ، وانعدام الثقافة .

اتسعت عينا (بافلوف) ، مع ذلك الجواب الفظ ، وهو يهتف :

ـ أى جواب هذا ؟! إنه سيثير الكل بغطرسته هذه .

التقى حاجبا (كواليسكى) فى صرامة عصبية ، وهو يقول :

ـ ولكن كيف تبث (ناديا) هذا اللقاء ؟! رجال الأمن ، فى كل ستوديو فى (روسيا) كلها ، لديهم صورتها وأوصافها ، مع أمر بإلقاء القبض عليها ، فور رؤيتها !!

هتف (بافلوف) :

ـ إنه لقاء مسجّل ولاريب .

قال (كواليسكى) ، فى عصبية أكثر صرامة :

ـ المهم كيف تبثه .

هزّ (بافلوف) رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ بل السؤال الحقيقى هو : كيف يدلى ذلك الأحمق (يورى) بحديث كهذا ؟!

ازداد التقاء حاجبى (كواليسكى) ، وهو ينصت إلى (ناديا) ، التى سألت ضيفها العجيب :

ألا تخشى أن يغضب حديثك هذا باقى زعماء (المافيا) ؟!

تراجع الضيف فى مقعده ، ووضع إحدى ساقيه فوق الأخرى ، فى غطرسة متعالية ، وهو يشير بيده فى الهواء ، مجيبًا :

ـ فليذهبوا إلى الجحيم .

شهق (بافلوف) مع الجواب ، وهتف :

ـ إنه مجنون حتمًا .

أجابه (كواليسكى) فى حزم :

ـ هذا ليس (يورى) .

حدّق (بافلوف) فيه ، هاتفًا :

ـ ليس من ؟!

كرّر (كواليسكى) ، بزمجرة صارمة :

ـ ليس (يورى) ..

ثم أشار إلى الشاشة ، مستطردًا فى حدة :

ـ إنه يشبهه تمام الشبه ، فى هيئته وصوته وأسلوبه، ولكنه ليس هو .. أنا أعرف (يورى) جيدًا ، وهو مغرور متغطرس ، ولكنه ليس أحمق أبدًا .

عاد (بافلوف) يحدّق فى الشاشة بذهول ، قبل أن يتساءل فى حذر متوتر :

ـ من هذا إذن ؟!

كاد حاجبا (كواليسكى) ينعقدان ، وهو يجيب فى عصبية بالغة :

ـ رجل واحد فحسب ، يمكنه أن يفعل هذا .

ولم يفصح عن اسم ذلك الرجل ، ولكن (بافلوف) أدرك الجواب ..

تمامًا ..

* * *

« (أدهم صبرى) .. » ..

نطق (يورى) العبارة ، بكل غضب الدنيا ، وهو يتابع ذلك اللقاء الزائف ، فهتفت (زوشا) ذاهلة :

ـ أهو بارع إلى هذا الحد .

أجابها فى حنق :

ـ إنه هو .

هزّت (زوشا) رأسها فى قوة ، وكأنها لا تصدّق ما تسمعه ، فى حين تابع هو بغضبه الوحشى :

- أسلوبه هذا لن يخدعنى ، ولكنه على حق ، فى أن باقى زعماء (المافيا) هنا أغبياء حمقى ، وستنطلى عليهم لعبته السخيفة ، وسينقلبون علىّ بكل غضبهم وعنفهم ، دون أن يدركوا ما يحدث .

وألقى سيجارته بعيدًا ، وهو يضم قبضته ، متابعًا فى ثورة :

- إنه يسعى لتحطيم المنظمة من الداخل .

سألته فى ذعر :

- وماذا سنفعل ؟!

التقى حاجباه بضع لحظات ، فى تفكير عميق ، قبل أن يقول فى صرامة :

- فلتطلبى من الرجال إحضار ذلك الخبير الفنلندى فورًا ..

التقطت هاتفها المحمول ، وراحت تضرب أزراره فى سرعة ، وهى تسأله فى انفعال :

- هل ستدفعه لتعقب البث ؟!

تجاهل سؤالها تمامًا ، وهو يلتقط هاتفه المحمول ، ويضغط أزراره فى عصبية ، فسألته :

- ماذا ستفعل ؟!

أجابها فى صرامة :

- أتعشم أن يكون البث مباشرًا ، فلا توجد سوى وسيلة واحدة ؛ لإفساد هذا المخطط الجهنمى .

سألته فى لهفة :

- وما هى ؟!

نقل إليها لحظة بصره المشتعل بالغضب ، قبل أن يجيب :

- أن يقتحم (يورى إيفانوفيتش) الحقيقىُّ الصورةَ .

كانت تلقى أوامره للرجال ، عندما سمعت رنين الهاتف ، الموجود بين (ناديا) وضيفها ، والذى يظهر طوال الوقت على الشاشة ، ورأت (ناديا) تلتقطه ، قائلة :

- والآن مع أول هاتف مباشر ، فى لقائنا المثير .. هنا (ناديا) .. من المتحدث ؟!

أجابها (يورى) فى صرامة ، حملت كل غضبه ووحشيته :

- أنا (يورى إيفانوفيتش) الحقيقى .

انبعث صوته فى التلفاز ، فى اللحظة ذاتها ، على نحو يؤكد أن اللقاء مباشر بالفعل ، ولكن (ناديا) حافظت على ابتسامتها الهادئة ، وهى تقول :

- حقًّا ؟!

أما ضيفها ، فأطلق ضحكة ساخرة عالية ، قائلاً :

- يالها من مزحة سخيفة ! لو أنك (يورى إيفانوفيتش) الحقيقى ، فمن أكون أنا ؟!

صاح به (يورى) فى حدة :

- محتال سخيف ، يريد بث روح الفرقة ، فى صفوف منظمة (المافيا) الروسية ..

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى الضيف ، وهو يقول :

- عظيم .. هل يمكنك أن تثبت هذا ؟!

انتفض جسد (يورى) وصوته ، من فرط الغضب ، وهو يهتف :

- أثبت ماذا ؟!

أجابه (أدهم) ، الذى ينتحل شخصيته ، فى هدوء ساخر مستفز :

- اثبت أنك (يورى إيفانوفيتش) الحقيقى .

سرت موجة من الغضب والسخط ، فى كل ذرة من كيان (يورى) ، وأسقط فى يده ، مع ذلك التحدى السافر ، عبر شاشات التلفاز ، فى (روسيا) كلها ..

فكيف السبيل إلى إثبات حقيقة هويته ، عبر هاتف محمول ؟!

كيف ؟!

وانعقد حاجبا (يورى) فى شدة ، حتى بدا وكأنهما قد انغرسا فى قمة أنفه ، فوق عينين اشتعلتا بنيران غضب جهنمى هادر ، وهو يقول :

- دعنا نثبت أولاً أنك أنت (يورى إيفانوفيتش) الحقيقى .

لوّح (أدهم) بأصابعه ، فى حركة مسرحية مستفزة ، وهو يقول فى سخرية لاذعة :

- ماذا دهاك يا رجل ؟! أأعمى أنت أم أصمّ ؟! ألا ترانى أمامك ، وتسمعنى فى وضوح ؟!

ثم مال يواجه الكاميرا أكثر ، مستطردًا ، بلهجة أكثر استفزازًا :

- أخبرنى أنت .. أليس هذا وجه (يورى إيفانوفيتش) ؟! ألا يشبه صوتى صوته ؟! ألا تبدو هيئتى ولهجتى ، كهيئته ولهجته ؟!

صاح به (يورى) فى حدة :

- اجذب وجهك إذن .

تراجع (أدهم) ، وهو يطلق ضحكة ساخرة عالية ، جعلت (زوشا) نفسها تتساءل :

أيهما (يورى) الحقيقى ، قبل أن يقول ، بكل سخرية الدنيا :

- أجذب وجهى ؟! ياله من مطلب مضحك سخيف !

كاد (يورى) يفقد أعصابه تمامًا ، وهو يصرخ :

- إننى أتحداك إذن .. أتحداك أمام كل المشاهدين ، أن تنزع ذلك القناع عن وجهك ، وتبدى هيئتك الحقيقية .

تدخلت (ناديا) ، عند هذه النقطة ، وقالت فى هدوء ، دون أن تفقد ابتسامتها الساحرة الشهيرة :

- معذرة أيها المشاهد الكريم .. أنا لا أعرف السيد (يورى) شخصيًا ، ولكننى أعتقد أن أى قناع ، مهما بلغت دقته ، لايكفى لانتحال شخصية ما ، فالمرء ليس وجهًا فحسب .. إنه وجه ، وهيئة ، وصوت ، ولهجة ، وأسلوب ، ونمط .

واعتدلت فى مقعدها ، واتسعت ابتسامتها ، وهى تشير إلى (أدهم) ، مستطردة :

ـ أخبرنا أنت .. ألا ينطبق كل هذا على ضيفنا الخاص ؟!

هتفت (زوشا) فى غضب :

ـ يا لوقاحتها !

أما (أدهم) ، فقد بدت ابتسامته أشبه بصفعة على وجه (بورى) ، وهو يقول :

ـ لابأس يا عزيزتى (ناديا) .. اتركى مشاهدنا الكريم يتحدث .. نريده أن يفرغ كل ما بجعبته .

احتقن وجه (بورى) ، وهم بالصراخ مرة أخرى ، عبر هاتفه المحمول ، إلا أنه لم يلبث أن تجمّد فى مكانه لحظة ، وحدّق فى الهاتف بغضب لم تستوعبه (زوشا) ، قبل أن يلقيه أرضًا فى عنف ، صائحًا :

ـ يا لغبائى !

تراجعت (زوشا) بحركة حادة ، عندما تحطّم الهاتف المحمول عند قدميها ، وهتفت :

ـ ماذا هناك ؟!

صاح فى غضب ، وهو يشعل سيجارته فى عصبية :

ـ لقد كانت خدعة !

اتسعت عيناها ، وهى تردد :

ـ خدعة ؟!

أجاب فى حدة ، وهو ينفث دخان سيجارته فى قوة :

ـ نعم .. كل هذا كان الغرض منه استفزازى ، ودفعى للاتصال بذلك الرقم ، الذى يظهر على الشاشة طوال الوقت .

سألته فى حذر متوتر :

ـ ولماذا ؟!

قال فى سخط شرس :

ـ ليتعقبوه ، ويحددوا موقعى ، بوساطة خبير الكمبيوتر ، الذى حرّره (أدهم) هذا ، من صومعة (جيلروف) .

هتفت مذعورة :

ـ وهل تعتقد أنهم قد نجحوا فى هذا ؟!

أجابها فى غضب :

ـ لا أحدى يدرى .

ثم أشار بيده ، مستطردًا فى صرامة وحشية :

ـ ولكننا لن نجازف بالانتظار .. سنغادر هذا المكان على الفور ، وسنلتقط خبير الاتصالات الفنلندى فى طريقنا ، ليتعقَّب إشارة البث ، ويخبرنا أين هم بالضبط .

حملت أشياءها ، ولحقت به فى سرعة ، وهى تهتف :

ـ إلى أين سنذهب ؟!

أجابها فى صرامة :

ـ إلى أبعد مكان ممكن .

ثم توقَّف بغتة ، وانعقد حاجباه على نفس النحو الشيطانى ، وهو يضيف :

ـ أريد الاتصال بكل الزعماء فورًا .. سأتحدث إليهم بنفسى ، فى أثناء وجود ذلك المصرى على الشاشة .. هذه هى الوسيلة الوحيدة ، لإثبات أنه ليس أنا .

ووثب داخل سيارته الكبيرة ، وهو يضيف فى حنق :

ـ لعل عقولهم الغبية تستوعب هذا .

وانطلقت بهما السيارة ، وخطة الانتقام تختمر فى رأسه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

بدا مدير المخابرات الروسية شديد الحنق والغضب ، وهو يتابع ذلك اللقاء الزائف على شاشة التلفاز ، قائلاً :

ـ إنها مهزلة يا (كواليسكى) .. مهزلة بكل المقاييس .. (ناديا فيدروفيتش) ، التى وزعنا أمرًا بإلقاء القبض عليها ، تبث على الهواء مباشرة ، برنامجها الشهير (صباح الخير) ، وتستضيف فيه (يورى إيفانوفيتش) ، زعيم (المافيا) ، بل وتعلن رقم هاتف مباشر ، ونحن عاجزون عن فعل أى شىء .. إنها ليست مهزلة فحسب ، وإنما كارثة .

أجابه (كواليسكى) ، وهو يبذل جهدًا خرافيًا ؛ للسيطرة على أعصابه :

ـ لقد فحصنا كل ستوديوهات البث ، وهم ليسوا فى أى منها ، ومن الواضح أنهم يستخدمون أسلوبًا متطورًا ، من أساليب القرصنة على شبكات الكمبيوتر ، لإرسال برنامجهم إلى شبكة البث الرئيسية ، من مكان ما .

لوّح المدير بذراعيه ، وهو يهتف :

ـ مكان ما ؟! ياله من قول ، يأتى على لسان رجل مخابرات ، فى جهاز يفترض فيه التصدّى ، لكل أجهزة المخابرات المعادية ، بكل تطوّرها وتكنولوجياتها !

احتقن وجه (كواليسكى) ، وهو يقول :

ـ ولكنهم ارتكبوا خطأ فادحًا يا سيدى .

ثم أشار إلى شاشة التلفاز ، مستطردًا فى حدة :

ـ رقم الهاتف ، المعروض طوال الوقت ، والذى يتلقون عليه سيل المكالمات ، الذى لم ينقطع لحظة واحدة ، منذ أنهى (يورى) محادثته ، و ...

هتف المدير يقاطعه فى استنكار :

ـ من ؟!

انتبه (كواليسكى) إلى زلة لسانه ، ولعن ذلك الغضب ، الذى يفقده تركيزه ، وسيطرته على أعصابه ، وقال فى توتر :

- أعنى تلك المحادثة الهزلية ، التى دارت بين ضيف (ناديا) ، وذلك الذى ادعى أنه (يورى إيفانوفيتش) الحقيقى .

رمقه المدير بنظرة صارمة طويلة ، قبل أن يقول فى حزم :

- فليكن .. ماذا بشأن رقم الهاتف ؟!

أجابه (كواليسكى) فى سرعة :

- إننا نتعقبه الآن ، بوساطة خبرائنا ، وبمعاونة .. أعنى وبكل طاقاتنا وإمكانياتنا ، وأظننا سنتوصل إليه ، فى غضون خمس عشرة دقيقة على الأكثر .

ألقى المدير نظرة عصبية على شاشة التلفاز ، حيث تواصل (ناديا) لقاءها مع (أدهم) ، الذى ينتحل شخصية (يورى) ، ثم قال فى حدة :

- ومن يضمن أن يستمر البرنامج لخمس عشرة دقيقة أخرى ؟!

أجابه (كواليسكى) فى توتر :

- المكالمات الهاتفية مازالت تنهال على البرنامج ، و(ناديا) اعتادت أن تقدّم برنامجها لساعتين يوميًا ، وهذا يعنى أنه مازال أمامنا ما يكفى من الوقت .

مطّ المدير شفتيه ، قائلاً :

- أتمنّى هذا .

ثم عاد يسأل فى حدة :

- وماذا عن الكولونيل (كوريوف) ؟! ألم تعثر عليه بعد ؟! كنت تؤكّد أن مرافقه المصرى قد تم رصده فى (ليننجراد) .

عضّ (كواليسكى) شفته السفلى ، وهو يقول فى عصبية :

- لقد اختفى .

هتف به المدير :

- أيهما ؟!

أجاب فى حنق :

ـ هذا وذاك .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، ليضيف فى توتر :

ـ المصرى اختفى تمامًا ، فى قلب (لينينجراد) ، ونحن ننبش الأرض بحثًا عنه هناك ، أما (سيرجى) فـ ...

توقف لحظة ، قبل أن يتابع فى عصبية :

ـ فيقولون : إنه هنا فى (موسكو) .

هتف المدير ، مستنكرًا :

ـ يقولون ؟!

أشار (كواليسكى) بسبابته ، قائلاً :

ـ لا يوجد دليل واحد على هذا ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، ارتفع رنين هاتفه المحمول ، فالتقطه فى سرعة ولهفة ، وهو يتساءل :

ـ ماذا هناك ؟!

انعقد حاجباه فى شدة ، وتألّقت عيناه على نحو عجيب ، وهو يستمع إلى محدثه ، قبل أن يهتف فى انفعال :

ـ لا تنتظر لحظة واحدة .. نفذ العملية فورًا .

أنهى المحادثة ، وهو يدير عينيه إلى عينى المدير المتسائلتين فى توتر ، وقال فى انفعال حماسى :

ـ لقد كشفنا موقع البث .

ثم مال إلى الأمام ، وتضاعف تألّق عينيه ، وهو يضيف :

ـ وسيهاجمه (بافلوف) ، على رأس فريق من الرجال .. فورًا .

وكان قوله هذا يعنى أن المواجهة تبدأ جولة جديدة ..

رهيبة ..

* * *

٥ ـ من ؟!

فرك مدير المخابرات عينيه فى إرهاق ، وتثاءب قائلاً لوزير الداخلية ، الذى جلس إلى جواره ، فى قاعة المتابعة :

ـ من الواضح أن (ن ـ ١) يحاول إرباك (يورى إيفانوفيتش) ، وتشتيت تفكيره ، بحيث ينشغل بمحاولة إنقاذ سمعته ، ومنع تفكك منظمته ، عن خطته الشيطانية ، للسيطرة على العالم .

غمغم وزير الداخلية :

ـ رجلكم هذا مدهش .

وافقه المدير بإيماءة من رأسه ، قائلاً :

ـ بل هو أكثر من هذا ؛ بدليل أن (يورى) قد انشغل بالفعل ، فلم يأمر بإطلاق شحنة غاز الأعصاب الثانية هنا بعد ، مما منحنا بعض الوقت ؛ لإجراء مزيد من التحريات والبحث .

تساءل الوزير فى قلق :

ـ وهل يمكن أن يفلح هذا ؟!

أشار بيده ، مجيبًا :

ـ أنت على حق تمامًا ، فى أنه من المستحيل أن نجد من الوقت ما يكفى ، لتفتيش وفحص كل سيارة فى (القاهرة) .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

ـ ولكن خبراءنا لهم رأى آخر .

اعتدل وزير الداخلية فى مجلسه ، وهو يتساءل فى اهتمام :

ـ أى رأى هذا ؟!

لوّح المدير بسبّابته ، مجيبًا :

ـ اسطوانات غاز الأعصاب القاتل ، تحتاج إلى سيارة ذات حقيبة كبيرة ، ولقد حددوا نوعين من السيارات فحسب ، مما يضيّق نطاق البحث ، إلى درجة كبيرة .

بدا اهتمام بالغ على وجه الوزير ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح ، ولكن مساحة (مصر) من الضخامة ، بحيث يصعب حتى فحص كل السيارات ، فى كل مكان منها .

أجابه المدير فى حزم :

ـ رأى الخبراء لم يقتصر على هذا ، فقد وضعنا أمامهم كل الحقائق والمعلومات ، وطلبنا منهم تحديد الطبيعة النفسية لـ (يورى إيفانوفيتش) ، ودراسة كل الضربات التى وجهها سابقًا ، لتحديد كيفية اتخاذه القرار ، فى المرحلة القادمة .

سأله الوزير فى لهفة :

ـ وما الذى توصلوا إليه ؟!

أجابه فى سرعة ، على نحو يوحى بأنه كان يتوقَّع السؤال :

ـ (يورى) شخص غير مستقر نفسيًا ، ولكنه مزهو

بنفسه ، ويميل إلى الاستعراض ، مع تأمين نفسه جيِّدًا ، وهذا يعنى ـ وفقًا لتقديرهم ـ أنه سيضرب ضربته حتمًا فى (القاهرة) .. ليس باعتبارها عاصمة (مصر) فحسب ، ولكن باعتبارها أيضًا ، من الناحية السياسية ، أهم عواصم منطقة الشرق الأوسط ، وإبادة الملايين من سكانها ، بشحنة من غاز الأعصاب ، كفيل بتحطيم الروح المعنوية ، فى المنطقة كلها .

هتف الوزير فى حسم ، وهو يلتقط هاتفه المحمول :

ـ عظيم .. هذا يعنى أننا نبحث عن نوعين فحسب من السيارات ، وفى (القاهرة) وحدها .. هذا يعنى انكماش دائرة البحث ، إلى درجة معقولة .

أشار المدير بسبابته ، وهو يقول :

ـ يمكننا تقديم مزيد من الانكماش أيضًا .

هتف الوزير :

ـ حقًا ؟!

مال المدير نحوه ، قائلاً :

ـ فى رأى فريق خبرائنا ، أن الضربة ستنطلق من أحد الميادين الرئيسية ، وأن قائد السيارة لن يكون روسيًا هذه المرة ، بل مصريًا ، يعمل لحساب منظمة (المافيا) الروسية منذ زمن .

اتسعت عينا الوزير عن آخرهما ، وهو يقول فى انبهار :

ـ نوعان من السيارات فحسب ، فى أحد ميادين (القاهرة) الكبرى ، والقائد مصرى .. إنكم مدهشون .. أعتقد أن عملية البحث أصبحت ممكنة للغاية الآن .

وافقه المدير بإيماءة من رأسه ، ثم قال فى حزم :

ـ هذا لو أنه مازال لدينا ما يكفى من الوقت .

والتقى حاجبا وزير الداخلية فى شدة ..

فمدير المخابرات كان محقًا تمامًا فى قوله ..

عملية البحث ممكنة ، لو أنه مازال هناك مايكفى من الوقت ..

لـو !

* * *

كان الجو خانقًا ، فى ذلك القبو الرطب ، أسفل المبنى القديم لدار القضاء فى (موسكو) ، حتى إن خبير الاتصالات الفنلندى (فيليب أندرسن) قد سعل مرتين ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ العمل هنا مرهق للغاية ياسيد (إيفانوفيتش) .. لماذا لا أنقل أجهزتى إلى مكان متجدد الهواء ، بدلاً من ....

قاطعه (بورى) فى غلظة قاسية :

ـ اصمت ، وتابع عملك يا رجل .

أطبق الفنلندى شفتيه ، وعاد يواصل عمله ، فى تعقب عملية البث للبرنامج الذى مازال يتواصل على الشاشة ، والذى انعقد حاجبا (بورى) فى شدة ، وهو يتابعه ، فى حين سألته (زوشا) فى قلق :

ـ هل تحدثت إلى كل الزعماء ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يجيب فى حنق :

ـ الحمقى كانوا ثائرين بالفعل ، واتهمونى بإهانتهم ،

على الرغم من أننى أتحدث إليهم بنفسى ، فى أثناء بث هذه المقابلة الوهمية السخيفة أمامهم ، على الهواء مباشرة .

مطت شفتيها ، قائلة :

ـ يا للسخافة !

ثم أشارت إلى الخبير الفنلندى ، متسائلة فى حذر :

ـ ألا يحتمل أن يفهم حديثنا ؟!

هز رأسه نفيًا بحزم ، مجيبًا :

ـ كلا .. لقد تأكدت من هذا بنفسى .

أومأت برأسها متفهمة ، وإن لم تستطع كبت ذلك القلق ، المتصاعد من أعماقها ، والذى بدا واضحًا فى صوتها ، وهى تسأل :

ـ هل قبلوا الاجتماع بك ؟!

استدار إليها بعينين غاضبتين ثائرتين ، وهو يقول :

ـ قبلوا ؟!



قاطعه (يورى) فى غلظة قاسية :
ـ اصمت ، وتابع عملك يا رجل ..

انتفض جسدها ، وهى تقول فى سرعة :

ـ أعنى متى يصلون ؟!

شعرت ببرد قارس يسرى فى أوصالها ، مع تلك النظرة النارية ، التى يرمقها بها ، فانخفض صوتها ، وهى تغمغم :

ـ لم أكن أقصد هذا .. أقسم لك .

ظل يرمقها بتلك النظرة النارية بضع لحظات أخرى ، قبل أن يعود لمتابعة تلك المقابلة الوهمية على الشاشة ، قائلاً :

ـ لن يأتوا إلى هنا أبدًا .

تساءلت فى حيرة :

ـ ماذا تعنى ؟!

عاد يستدير إليها فى شراسة ، مجيبًا :

ـ أعنى أننى لست مستعدًا بالمجازفة بأن يتعقبهم أحد إلى هنا ؛ ليكشف موقعى .

بدت الحيرة فى عينيها ، فتابع فى عصبية :

ـ ربما يكون هذا هو الهدف من كل ما يحدث .. محاولة لتشويه صورتى وسمعتى ، وإثارة غضب باقى الزعماء ، مما يدفعنى إلى الاجتماع بهم ، وهنا تصبح الفرصة مثالية لكشف موقعى ، الذى يعجزون عن كشفه دومًا ؛ بسبب فكرتى العبقرية ، فى تغييره باستمرار .

غمغمت فى حذر :

ـ الزعماء يتخذون كل الاحتياطات فى المعتاد .

قال فى صرامة :

ـ ليس بالقدر الكافى .. هناك وسائل لم يمكنهم استيعابها بعد ، ثم إنهم يتعاملون ويتصرفون دومًا باعتبارهم الأقوى ، والأبرع ، والأكثر سطوة ونفوذًا ، وهذا يجعل التسلل إليهم ممكنًا دائمًا .. ثم من أدرانى .. ربما انتحل أحد معاونى (أدهم) شخصية أحد الزعماء ، أو حتى أحد حراسهم الشخصيين ، ليصل إلى هنا .

غمغمت :

- (يورى) .. أنت حذر أكثر مما ينبغى هذه المرة .

احتقن وجهه ، وهو يجيب فى شراسة :

- لأننى مازلت أجهل الغرض الحقيقى ، لهذه الخدعة السخيفة .

ثم التفت إلى خبير الاتصالات الفنلندى ، هاتفًا فى غضب هادر :

- ألم تتوصل إلى موقع البث بعد ؟!

انتفض جسد الرجل ، وهو يسعل ، قائلاً :

- الأمر ليس سهلاً ياسيد (يورى) .. إنهم لايستخدمون أسلوب بث مباشر ، ثم إن ذلك الهاتف ، الذى ترى رقمه على الشاشة ، هو أحد الهواتف اللاسلكية بعيدة المدى ، ويمكن استخدامه عبر وحدة مركزية رئيسية ، تقع فى دائرة نصف قطرها كيلومتران كاملان ، وهى مساحة هائلة للبحث .

بدا الغضب أكثر على وجه (يورى) ، وهو يقول :

- كنت أتوقع هذا .. (كواليسكى) الغبى تصوّر أنه قد كشف موقع البث ، وأمر رجاله باقتحامه ، ومن المؤكد أنه قد تلقى معهم صفعة قوية ، فالبرنامج مازال يبث ، بعد عشر دقائق كاملة ، من صدور أمر الاقتحام .

قالت (زوشا) فى توتر :

- إذن فالكولونيل (بافلوف) لم يظفر بهم .

هزّ (يورى) رأسه فى قوة ، قائلاً :

- لا (بافلوف) سيفلح ، ولاحتى (ليبروسكى) ، فذلك الشيطان (أدهم صبرى) ، وفريقه الصغير ، أكثر براعة منهما .. بل ومن كل رجال المخابرات الروسية أيضًا .

ترددت لحظة ، قبل أن تقول :

- ولكنهم ليسوا أكثر براعة منك .

صاح بها فى غضب :

- بالتأكيد .

لم يكد يفعل ، حتى ارتفع رنين هاتف (زوشا) المحمول ، فالتقطته هى فى سرعة ، وألقت نظرة على الرقم الواضح ، على شاشته الصغيرة ، قبل أن تضغط أزراره ، قائلة :

- إنه (كواليسكى) .

اختطف (يورى) الهاتف من يدها ، قائلاً فى حدة :

- أعطينى إياه .

لم يكد يضع الهاتف على أذنه ، حتى سمع صوت (كواليسكى) ، يقول فى عصبية شديدة :

- (زوشا) .. أين (يورى) ؟! إننى أحاول أن ..

قاطعه (يورى) فى صرامة :

- إنه أنا يا جنرال .

صمت (كواليسكى) لحظة ، وكأنما فاجأه سماع صوت (يورى) ، عبر هاتف (زوشا) ، ثم لم يلبث أن هتف فى عصبية :

- أين أنت يا (يورى) .. إننى أتصل بهاتفك ، ولكنه لا يعمل ، منذ أكثر من ....

قاطعه (يورى) مرة أخرى فى صرامة عصبية :

- ماذا لديك يا (كواليسكى) ؟! هل أردت أن تبلغنى بفشلكم ، بعد أن اقتحمتم ما تصوَّرتموه محطة البث ، ثم لم تجدوا شيئًا .

بُهت (كواليسكى) بقوله ، فهتف :

- كيف علمت هذا ؟!

صاح به (يورى) ، فى غضب هادر :

- متى ستدرك أننى أعرف كل شىء أيها الغبى ؟!

صمت (كواليسكى) لحظة أخرى ، ثم قال فى عصبية :

- إننا نواصل البحث يا (يورى) ، ولقد حددنا نطاقه ، و ....

لم يسمع (يورى) باقى العبارة ، وهو يحدق فى شاشة التلفاز ، التى يتواصل عليها لقاء (ناديا) مع (أدهم) ، الذى ينتحل شخصيته ..

وأدرك (كواليسكى) أن (يورى) لايتابعه ، فهتف :

- سيد (يورى) .. هل تسمعنى ؟!

أعاد هتافه (يورى) إلى وعيه ، فقال فى حدة :

- (كواليسكى) .. هل تتابع تلك المقابلة الزائفة ، على شاشة التلفاز ؟

توتر صوت جنرال المخابرات الروسى ، وهو يجيب :

- كلا .. لماذا ؟!

حمل صوت (يورى) كل غضب الدنيا ، وهو يقول :

- لأنهم يتحدثون عنك .

صرخ (كواليسكى) :

- على أنا ؟!

أنهى (يورى) المحادثة ، دون أن يهتمّ بإجابته ..

فما يراه أمامه على الشاشة ، فى هذه المرحلة ، كان مدهشًا ..

بحق ..

* * *

« سيد (يورى) .. لماذا فى رأيك ، تمتلك منظمة (المافيا) الروسية ، كل هذه القوة والسطوة ؟! »

ألقت (ناديا) سؤالها على (أدهم) ، الذى ينتحل على الشاشة شخصية (يورى) ، فلوّح بيده فى غطرسة ، مجيبًا :

- هذا أمر طبيعى ، لأن بعض رجال السلطة يعملون لحسابها ، ويتقاضون رواتبَ شهرية منها ، وإلا فكيف تظنينهم يحبون تلك الحياة المرفّهة ، مع رواتبهم الحكومية المحدودة ؟!

مالت (ناديا) نحوه ، بابتسامتها الساحرة ، وهى تسأله :

ـ هل يمكنك أن تضرب لنا بعض الأمثلة ؟!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، وهو يجيب ، مقلدًا صوت ولهجة وأسلوب (يورى إيفانوفيتش) :

ـ سأضرب لك أحد الأمثلة الصارخة .

ثم أشار بسبابته ، مضيفًا :

ـ وبدليل لايقبل الشك .

سألته فى اهتمام :

ـ أى مثل هذا ؟!

أشار بيده ، قائلاً :

ـ جنرال المخابرات (جوزيف كواليسكى) .

مع إشارته ، اختفت صورته وصورة (ناديا) من الشاشة ، وحلت محلهما صورة لأحد شوارع (موسكو)

الجانبية ، التى تقف فيها سيارة كبيرة ، تحت الجليد المنهمر ..

ثم ظهرت سيارة أخرى عند الناصية ..

سيارة تقدمت ، حتى توقفت خلف السيارة الأولى تمامًا ، قبل أن ينفتح بابا السيارتين ، ويبرز من ، إحداهما (جوزيف كواليسكى) ، ثم تبرز من الثانية (زوشا) ، رفيقة (يورى) ، وحارسته الشخصية ..

وفى عصبية شديدة ، صاحت (زوشا) ، وهى تراقب هذا المشهد على شاشة التلفاز :

ـ مستحيل ! هذا لم يحدث أبدًا .

أشار إليها (يورى) ، قائلاً فى صرامة عصبية :

ـ اصمتى .. وتابعى .

احتقن وجهها فى غضب ، وأطبقت شفتيها فى حنق ساخط ، وهى تتابع الشاشة ، التى بدا عليها (كواليسكى) ، وهو يتجه نحو (زوشا) ، ويتحدث إليها فى عصبية ،

وهو يلوّح بذراعيه ، فى حين وقفت هى أمامه هادئة ، ثم لم تلبث أن التقطت من جيبها مظروفًا منتفخًا ، ناولته إياه ، فدسّه فى جيب معطفه ، وواصل حديثه معها بضع لحظات أخرى ، ولكن بدون تلك العصبية الزائدة ، وبعدها عاد كل منهما إلى سيارته ، وانطلق خارج المشهد ..

وعلى الشاشة ، عادت صورة (ناديا) وضيفها ، وهى تقول :

- هل يثبت هذا الفيلم فى رأيك ، تورُّط الجنرال (كواليسكى) ، فى علاقة غير مشروعة ، مع منظمة (المافيا) ؟!

أطلق (أدهم) على الشاشة ضحكة مجلجلة ، احتقن معها وجه (يورى) بشدة ، قبل أن يجيب (ناديا) فى سخرية :

- تلك المرأة على الشاشة ، واحدة من أعمدة منظمة (المافيا) هنا ، فما الذى كان يحويه ذلك المظروف ، الذى منحته إياه ؟! أوراق لعب ؟!

هتفت (زوشا) الحقيقية فى عصبية :

- هذا لم يحدث أبدًا .. أنا لم ألتق بالجنرال (كواليسكى) وحدنا فى مكان كهذا ، ولم أمنحه أية نقود بصورة مباشرة قط .

أجابها (يورى) فى غضب مكتوم :

- أعلم هذا .

ثم تراجع فى مقعده ، ونفث دخان سيجارته فى قوة ، قبل أن يضيف ، فى عصبية واضحة :

- ولكن المشاهدين لا يعلمون .

انتفض جسدها ، وهى تهتف :

- لايمكن أن يكون هذا دليل إدانة .

أجابها فى صرامة شرسة :

- بالتأكيد .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى وحشية :

- ولكنه يكفى لإثارة التوتر والبلبلة .

ثم اعتدل بحركة حادة ، وألق سيجارته بمنتهى العنف ، وهو يضيف ، مشيرًا إلى الشاشة :

ـ وهذا ما يسعون إليه .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته هذه ، كان رنين الهاتف الأحمر الخاص ، على مكتب مدير المخابرات الروسية ينطلق ، فالتقطه الرجل بحركة سريعة ، وهو يغمغم فى توتر :

ـ كنت أعلم أن هذا سيحدث .

بذل جهدًا يفوق طاقته ؛ للسيطرة على أعصابه ، وهو يقول :

ـ صباح الخير يا سيادة الرئيس .. لم أكن أتصوّر أنك ..

قاطعه الرئيس الروسى ، وهو يهتف فى غضب :

ـ هل تتابع تلك المهزلة الإعلامية يا رجل ؟!

ازدرد المدير لعابه فى صعوبة ، قائلاً :

ـ الأمر يبدو سيئًا للغاية يا سيادة الرئيس ، ولكننا نبذل قصارى جهدنا لتحجيمه ، و ...

مرة أخرى ، قاطعه الرئيس الروسى ، هاتفًا :

ـ وماذا عن ذلك الاتهام الصريح لأحد جنرالاتك ، بالعمالة لحساب (المافيا) الروسية ؟!

قال المدير ، فى توتر حذر :

ـ إنه مجرّد اتهام إعلامى يا سيادة الرئيس ، دون أدلة مادية ، أو براهين قوية .

زمجر الرئيس الروسى ، قائلاً :

ـ بعد بثه على هذا النحو ، لم يعد كذلك يا مدير المخابرات .. لقد أصبح اتهامًا علنيًا سافرًا ، لجهاز مخابراتنا كله .

التقط المدير نفسًا عميقًا ، وغمغم فى استسلام :

ـ أوامرك يا سيادة الرئيس .

أجابه الرئيس فى سرعة وصرامة :

- فليتم إيقاف (كواليسكى) هذا عن العمل فورًا ، وإجراء تحقيق شامل ، بشأن هذا الاتهام المباشر ، والتحرى عن أوضاعه المالية ، قبل وبعد عمله فى المخابرات الروسية ، ولو ثبت تورطه ، فليقدم إلى محاكمة علنية سريعة ..

ثم استطرد فى حدة :

- لابد من تهدئة الرأى العام ، بأسرع وسيلة ممكنة .. هل تفهم ؟!

تنهد المدير ، وهو يجيب :

- أفهم يا سيادة الرئيس .. أفهم جيدًا .

وأنهى المحادثة ، وهو يدير عينيه مرة أخرى إلى شاشة التلفاز ، ثم يضرب سطح مكتبه بقبضته ، صائحًا فى حدة :

- لن ينتهى هذا البرنامج أبدًا ؟!

أطلق صيحته هذه ، فى نفس الوقت الذى هب فيه

(يورى إيفانوفيتش) من مقعده ، داخل ذلك القبو الرطب ، وهو يلوّح بقبضته فى حدة ، صائحًا :

- لو وقع هذا المصرى فى قبضتى ، أقسم أن أمزقه إربًا ، حتى لا أترك منه قطعة تكفى لإشباع فأر وليد .

ثم استدار إلى خبير الاتصالات الفنلندى ، صارخًا فى غضب مخيف :

- وأنت .. ألم تتوصل إلى مصدر البث الرئيسى بعد ؟!

ارتجف جسد الرجل وصوته ، وهو يقول :

- لقد اقتربت كثيرًا يا سيد (يورى) ، فهم يستخدمون أسلوب حماية معقدًا ، ليس من السهل اختراقه .

سأله (يورى) بزمجرة شرسة :

- كم تبقى أمامك من وقت ؟!

ارتجف الرجل أكثر ، وغمغم :

- دقائق قليلة يا سيد (يورى) .. دقائق قليلة .

غمغمت (زوشا) فى عصبية :

ـ أظن الرجل عاجزاً عن العمل بكفاءة تحت عيوننا .. كان من الأفضل أن يعمل بعيداً .

قال (يورى) فى شراسة :

ـ لابد أن يعمل تحت رقابتى المباشرة .. الموقف لايسمح بأدنى خطأ .

حاولت السيطرة على أعصابها ، وهى تقول :

ـ فليكن .

كان من الواضح أن مايحدث يثير أعصابه بشدة ، ويكاد يُفقده صوابه ، على نحو لم يحدث من قبل قط ، فقد راقبت (زوشا) أصابعه المرتجفة ، من فرط الانفعال ، وهو يشعل سيجارة جديدة ، وعيناه تراقبان شاشة التلفاز ، فى غضب ما بعده غضب ..

ولقد أدهشها فى الواقع أن يستمر ذلك اللقاء الزائف ، لكل هذا الوقت ، على الرغم من ثقة أصحابه ، فى

أن كل جهاز أمن فى (روسيا) كلها ، سيسعى لتعقبهم ، وكشف موضع البث ..

ولكنها لم تفصح عن دهشتها وتساؤلها هذا أبداً ..

كل ما فعلته هو أن تمتمت :

ـ عجباً !

ولم يلتفت إليها (يورى) ، أو حتى يسمعها ، فبكل كيانه ، كان يتابع ذلك اللقاء على الشاشة ، وفى أعماقه يدور سؤال هائل ..

تُرى ما الغرض الحقيقى لكل هذا ؟!

لماذا بذل (أدهم صبرى) وفريقه كل هذا الجهد ؛ لصنع تلك الأفلام الزائفة السخيفة ؟!

لماذا ؟!

ومتى ؟!

ربما كان هدفهم الفعلى هو إثارة الشكوك والبلبلة ، وتقويض دعائم منظمة (المافيا) الروسية كلها ، من خلال ذلك المبدأ البريطانى العريق ..

فرق تسد ..

فحتى الذئاب العادية تدرك أنه فى الاتحاد قوة ، وفى التفرُّق ضعف ..

لذا فهى تسير دائمًا فى قطعان مترابطة ، وليس بصورة منفردة ..

وقوة المنظمة الفعلية ، تعود إلى ترابطها ، وتناسقها ، واتحادها فى عالم الجريمة ..

ولكنه لا يستطيع هضم ذلك السبب المباشر أبدًا ..

هناك حتمًا سبب آخر ..

سبب أكثر ذكاءً ..

وأقل مباشرة ..

هذا ما اعتاده ، فى التعامل مع العباقرة البارعين ، من أمثال (أدهم صبرى) ..

ولكن ما يثير أعصابه هذه المرة ، هو أنه عاجز عن كشف ذلك الهدف غير المباشر ..

عاجز ؛ لأن ما يحدث يحتمل الكثير من الأهداف .. الكثير جدًا ..

« دقيقة واحدة ، ونتوصل إلى موقع البث .. »

نطق الفنلندى (فيليب أندرسن) الكلمة فى انفعال ، فانتزع (يورى) من أفكاره ، وجعله يلتفت إليه ، هاتفًا :

ـ حقًا ؟!

جرت أصابع الخبير الفنلندى على أزرار جهازه ، وهو يقول فى حماسة :

ـ لقد نجحت أخيرًا فى اختراق شبكة دفاعاتهم ، وصار من السهل تحديد موقعهم الرئيسى .

تألقت عينا (يورى) ، وهو يهب من مقعده ، وينفث دخان سيجارته فى قوة وانفعال ، هاتفًا :

ـ (زوشا) .. اتصلى بكل رجالنا ، وأبلغيهم أن يستعدوا لشن هجوم شامل عنيف ، على هدف سيتم تحديده خلال دقيقة واحدة .

التقطت هاتفها المحمول ، قائلة فى حماسة :

ـ سأفعل فوراً .

عادت عيناه تتألقان ، فى وحشية رهيبة ، وهو يضيف :

ـ وبعد أن ننتهى من هذا الأمر ، سنرسل الإشارة فوراً .

سألته فى اهتمام حذر ، وهى تضغط أزرار هاتفها :

ـ أية إشارة ؟!

أجابها ، ووجهه ينقلب ، على نحو شيطانى مخيف :

ـ الإشارة المتفق عليها ، مع عميلنا المصرى فى (القاهرة) ؛ ليطلق شحنة غاز الأعصاب الثانية .. فوراً .

مع آخر كلماته ، هتف الخبير الفنلندى :

ـ لقد حددت موقع البث الأساسى بدقة .

اشتعلت عينا (يورى) ، وهو يديرهما نحو شاشة

التلفاز ، التى مازالت تبث ذلك اللقاء ، بين (ناديا) و(أدهم) ، الذى ينتحل شخصيته ثم قال بكل غضبه ومقته وصرامته :

ـ أبلغى الموقع للرجال يا (زوشا) ، وليتحركوا ليضربوا ضربتهم فوراً .

وأدار عينيه إليها ، مضيفاً فى وحشية :

ـ لا أريد أحياء .

« هنا أم هناك ؟! »

انبعث السؤال من مدخل القبو ، فاستدار الكل إليه بحركة حادة ، وارتفع حاجبا الخبير فى دهشة ، فى حين انتفض جسد (زوشا) فى عنف ..

أما (يورى) نفسه ، فقد التقى حاجباه فى شدة ، واشتعلت عيناه بغضب بلا حدود ..

فما رآه أمامه ، كان شخصاً يستحيل توقُّع ظهوره .. أبداً .

* * *



ـ من رآه أمامه ، كان شخصًا يستحيل توقُّع ظهوره ..

٦ ـ المستحيل ..

أوقف (هلال) سيارته الكبيرة ، ذات الطراز الأمريكى العريق ، فى موقف السيارات الكبير ، فى ميدان (التحرير) ، أشهر وأكبر ميادين (القاهرة) ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة وقحة ، وهو يشعل سيجارته ، ويتطلَّع إلى مبنى مجمَّع الخدمات الحكومى الضخم ، قائلاً :

ـ ياله من موقع ! من الواضح أن الزعيم (بورى) عبقرى بحق .. ضربة واحدة هنا ، تكفى لإبادة ثلاثة ملايين من البشر ، خلال الدقائق الأولى وحدها .

وألقى نظرة على ساعته ، قبل أن يتابع :

ـ بعد ثلاث ساعات فحسب ، ستصبح هذه المنطقة أكثر مناطق (مصر) ازدحامًا ، وعندئذ ....

بتر عبارته ، ليصدر فرقعة بفمه ، أعقبها بضحكة ساخرة ، وهو يميل ليضغط زراً صغيراً ، فى تابلوه السيارة ، مستطرداً :

- الوداع يا (مصر) .

مع ضغطة الزر ، بدأ جهاز خاص عمله ، داخل السيارة ..

جهاز أعدّ قنبلة صغيرة محددة ، لاستقبال إشارة خاصة ، عبر جهاز لاسلكى للتحكم عن بعد ..

إشارة ، ما إن تبلغها ، حتى تنفجر وسط الأسطوانات ، التى تملأ الحقيبة ..

وتنطلق شحنة غاز الأعصاب ..

تنطلق لتبيد كل من تبلغه ..

وبلا رحمة ..

وفى هدوء ، وعلى الرغم من معرفته بما سيحدث ، غادر (هلال) السيارة ، وهو يُطلق من بين شفتيه

صفيراً منغوماً ، ثم أغلق بابها برتاج خاص ، مجهّز بحيث يطلق شحنة الغاز فوراً ، لو جرت أية محاولة لفتحه عنوة ..

وفى هدوء ، ودون أن يبالى بمصير الملايين ، الذين سيحصدهم الموت ، لو انطلقت شحنة الغاز ، راح يبتعد ..

ويبتعد ..

ويبتعد ..

* * *

لم يكد (جوزيف كواليسكى) يوقف سيارته ، عند ذلك المبنى الصغير المهجور ، الذى مازال يحمل لافتة متهالكة ، تشفّ عن هويته السابقة ، كوحدة اتصال بالأقمار الصناعية السوفيتية القديمة ، حتى وثب منها فى انفعال ، وهو يهتف بمساعده (ليبروسكى) :

- أهذا هو موقع البث الأساسى ؟!

أومأ (ليبروسكى) برأسه إيجابًا ، فى بطء حذر ، قبل أن يضيف بصوت أكثر حذرًا :

- نعم يا جنرال .. الكولونيل (بافلوف) هنا أيضًا ، ونحن نحاصر المكان ، وسننقض عليه لاقتحامه بعد لحظات .

هتف (كواليسكى) فى حماسة :

- عظيم .. دعنا نسحق هؤلاء المصريين بلا رحمة ، و ....

قاطعه (ليبروسكى) فى صرامة :

- مهلاً يا جنرال .. لابد من استئذان الكولونيل (بافلوف) أولاً .

احتقن وجه (كواليسكى) فى غضب ، وهو يقول :

- أى قول أحمق هذا يا (ليبروسكى) ؟!

تجاهله (ليبروسكى) تمامًا ، وهو يرفع جهاز الاتصال إلى فمه ، قائلاً :

- كولونيل (بافلوف) الجنرال (كواليسكى) هنا .

انبعث صوت (بافلوف) ، عبر جهاز الاتصال ، وهو يقول :

- سأحضر على الفور .

حدّق (كواليسكى) فى وجه (ليبروسكى) ، غير مصدّق لما يحدث ، ثم لم يلبث أن هتف فى غضب :

- ما الذى يحدث هنا بالضبط ؟!

رفع (ليبروسكى) سبابته إلى فمه ، قائلاً فى صرامة :

- صوتك يا جنرال .. اخفض صوتك ، وإلا تنبّه المصريون إلى أننا نحاصرهم .

ازداد احتقان وجه (كواليسكى) ، وهو يخفض صوته هاتفًا :

- ما الذى يعنيه هذا ؟! لماذا تتعامل معى بهذه الصفاقة ؟! ما الذى استجدّ من أمور ؟!

أتاه صوت (بافلوف) من خلفه ، يقول فى صرامة :

- صدر قرار بإيقافك عن العمل يا جنرال .

استدار إليه (كواليسكى) بحركة حادة، وضاقت عيناه، وهو يحدق فى وجهه بضع لحظات، قبل أن ينتفض جسده فى انفعال، مع هتافه :

- ما الذى يعنيه هذا ؟!

أشار (بافلوف) بيده فى صرامة، قائلاً :

- يعنى ما سمعته بالضبط يا جنرال .. لقد أصدر المدير أمراً بإيقافك عن العمل، وإحالتك إلى التحقيق، بشأن اتهامك بالعمالة، لحساب منظمة (المافيا) .

اتسعت عينا (كواليسكى)، وهو يقول :

- تحقيق ؟!

أجابه (ليبروسكى)، بلهجة تغلب عليها الشماتة :

- ليس هذا فحسب، ولكنهم سيراجعون موقفك المالى أيضاً، وسيستجوبون كل من عمل معك، و ...

ولم ينتظر (كواليسكى)، ليسمع باقى الحديث ..

فمن أعمق أعماقه، تصاعدت موجة هائلة من الرعب والارتياع ..

تحقيق بهذه الدقة يكفى لكشف كل المستور بلا هوادة ..

كل ما تصور أنه سيبقى سراً، سيتم نبشه، وإخراجه من قبره، ومواجهته به فى قسوة، كما حدث مع الآخرين من قبل ..

كل شىء سينكشف، ويظهر على السطح ..

كل شىء ..

وبصوت مرتجف، ولهجة امتزجت عصبيتها بذعرها، قال (كواليسكى) :

- لو أنهم فعلوا هذا، سأضطر إلى كشف كل شىء .

ثم ضاقت عيناه، وهو يضيف فى حدة :

- وكل شخص .

تبادل (بافلوف) نظرة صامتة مع (ليبروسكى)، قبل أن يقول فى هدوء :

ـ هذا أمر طبيعى .. كل مخطئ يحاول تبرئة نفسه دومًا، بتوريط الآخرين فى أعماله القذرة .

هتف به (كواليسكى) فى حدة :

ـ توريط الآخرين ؟! ياله من لفظ أنيق، للتعبير عن دورك ودور (ليبروسكى)، فى تعاوننا مع منظمة (المافيا) الروسية، منذ ظهرت إلى الوجود .

قال (بافلوف) بنفس الهدوء :

ـ لاداعى للصراخ يا جنرال، فأنا و(ليبروسكى) نعلم أننا غارقان حتى أذنينا، فى هذا المستنقع الرهيب .

أضاف (ليبروسكى)، بنفس اللهجة الشامتة :

ـ وأنت الدليل الوحيد على هذا يا جنرال .

انتبه (كواليسكى) فجأة إلى ماتعنيه العبارة،

فالتفت فى حركة سريعة عنيفة إلى (ليبروسكى)، ولكن بصره ارتطم بفوهة المسدس، التى يصوبها إليه هذا الأخير، وهو يتابع بابتسامة مقيتة :

ـ لذا، فقد أعددنا لك نهاية أكثر أناقة .

هوى قلب (كواليسكى) بين قدميه، وهو يقول :

ـ هل .. هل ستتخلصان منى ؟!

أجابه (بافلوف)، فى شىء من السخرية :

ـ بل إنك ستقود عملية الاقتحام هنا يا جنرال .

أضاف (ليبروسكى)، وقد أصبحت لهجته الشامتة واضحة جلية :

ـ وستلقى مصرعك كالأبطال .

نقل (كواليسكى) بصره بينهما فى غضب مذعور، قبل أن يثب إلى الخلف، ويستلّ مسدسه، هاتفًا :

ـ أيها الـ ....

قبل أن يتمّ عبارته ، أو يكتمل سحبه لمسدسه ، ضغط (ليبروسكى) زناد مسدسه ، قائلاً فى شماتة جارفة :

- خطأ يا جنرال .. خطأ .

اتسعت عينا (كواليسكى) عن آخرهما ، مع ذلك الثقب الصغير ، الذى تفجّرت منه الدماء ، فى منتصف جبهته ، وترنّح جسده لحظة ، قبل أن يهوى على وجهه كالحجر ، فى نفس اللحظة التى رفع فيها (بافلوف) جهاز الاتصال إلى فمه ، صارخًا :

- هجـــوم .

ومع صرخته ، انطلق الرجال ، المحيطون بوحدة الاتصال بالأقمار الصناعية ؛ لاقتحام المكان بمنتهى العنف ، ورصاصات مدافعهم الآلية تنسف أبوابها ..

وكان الاقتحام ناجحًا بكل المقاييس ..

فقبل مرور خمس دقائق ، كانت القوة الروسية المحدودة تسيطر على المكان تمامًا ..

ولقد كانت المعلومة صحيحة ..

البث الرئيسى كان يتمّ من ذلك المكان ..

كل معدات البث كانت تتصل بوحدة الكمبيوتر الرئيسية هناك ..

كل شىء ..

باستثناء البشر ..

فعلى الرغم من أن البث مازال مستمرًا ، كما تشير كل الآلات ، إلا أنه لم يكن هناك أثر لأى كائن حى ..

أدنى أثر ..

* * *

منذ وعت عيناه الدنيا ، وتفتحتا على أحداثها ، لم تمتلئ نفس (يورى إيفانوفيتش) بالغضب ، ولم تمتزج انفعالاته كلها بالذهول ، وهو يقف هناك ، داخل ذلك القبو الرطب ، أسفل المبنى القديم لدار القضاء فى

(موسكو) ، محدقًا فى ذلك الرجل القوى ، الذى وقف عند مدخله ، يتطلع إليه بكل سخرية الدنيا ..

آخر رجل يتمنى ، أو يتصور ، أو حتى يتخيل رؤيته ، فى تلك اللحظة ، وذلك القبو القديم ..

(أدهم) ..

(أدهم صبرى) ..

فذلك اللقاء المباشر ، الذى تجريه معه (ناديا فيدروفيتش) ، لم يكن قد انتهى بعد ، على شاشة التلفاز ..

وها هو ذا يقف أمامه ..

بشحمه ، ولحمه ، وقوته ، وابتسامته الساخرة أيضًا ..

وفى ذهول تام ، نقلت (زوشا) بصرها ، بينه وبين شاشة التلفاز ، قبل أن تهتف :

ـ مستحيل !

أشار (أدهم) بيده فى هدوء ، وهو يقول :

ـ لايوجد مستحيل يا (زوشا) ..

ثم أدار عينيه إلى (بورى) ، مستطردًا فى سخرية :

ـ لقد كانت حرب عقول .. أليس كذلك ؟!

لوّح (بورى) بسبّابته فى وجه (أدهم) ، هاتفًا :

ـ ولكن اللقاء مباشر .. لقد تأكّدت بنفسى ، عندما .

اتسعت ابتسامة (أدهم) الساخرة ، وهو يقاطعه ، قائلاً :

ـ عندما أجريت اتصالك الهاتفى .. أليس كذلك ؟! هذا كان أساس اللعبة كلها أيها العبقرى ، فاللقاء كان مباشرًا بالفعل ، حتى انتهى اتصالك ، وبعدها تم تشغيل لقاء مسجّل مسبقًا ، بمهارة تقنية عالية جعلتك وباقى المشاهدين لاتنتبهون إلى ما حدث ، ومنحتنا فرصة التحرك بنشاط وسرعة أكبر .. أما لو حاول البعض

الاتصال بالرقم ، الذى يوجد على الشاشة ، باعتبار أن البث مباشر ، فسيجدونه مشغولاً باستمرار ، وسيتصورُ أن هذا بسبب الاتصالات الهاتفية الزائفة ، التى تظاهرنا باستقبالها طوال الوقت ، عندما كنا نسجل الجزء غير المباشر .

احتقن وجه (يورى) ، واشتعل الغضب فى كيانه أكثر وأكثر ؛ لأنه لم يدرك هذه الخدعة المتقنة فى حينه ..

لقد نجح (أدهم) فى خداعه بحق ..

هو وفريقه الصغير ، نجحوا فى هزيمته ، لأول مرة فى حياته ..

« ولكن لماذا ؟! »

انطلق الهاتف المتسائل ، من بين شفتى (زوشا) الذاهلة ، فاستدار إليها (يورى) فى غضب ، صائحًا :

ـ ألم تفهمى بعد أيتها الغبية ؟!

تراجعت فى توتر بالغ ، فتابع فى عصبية :

ـ لقد كان يعلم أن هذا سيستفزنى بشدة ، وسيدفعنى إلى التحرك فى سرعة ؛ للتصدى إلى مايحدث ، ولمنع تحطيم وحدة المنظمة ،و ....

وارتجفت الكلمات على شفتيه ، من فرط الغضب ، وهو يضيف :

ـ وأننى سأسعى لكشف مصدر البث الرئيسى .

قالت فى حيرة :

ـ ولكنك حطمت هاتفك المحمول ، وانتقلت بنا إلى هنا ، و ....

قاطعها صائحًا :

ـ أيتها الغبية .

انكمشت فى مكانها ، على الرغم من قوتها العضلية ، وهو يتابع ، مديراً عينيه إلى خبير الاتصالات الفنلندى فى مقت :

ـ الهاتف لم يكن الهدف .. لقد كان هذا .

امتقع وجه (أندرسن)، وهو يقول فى ارتياع :

ـ لم أكن أعلم هذا يا سيد (يورى) .. أقسم لك .

عقد (أدهم) ساعديه، أمام صدره، وهو يقول فى سخرية :

ـ ولم تكن لتعلم يا رجل، فـ (شريف) أدار اللعبة الإليكترونية بعبقرية مدهشة، وعندما كنت أنت تبذل قصارى جهدك؛ لتحديد موقع البث الرئيسى، كان هو يلتقط إشاراتك ويعمل على تحديد مصدرها .. وما بدا لك وكأنه أسلوب حماية مزدوج، لمنع تعقب البث، كان فى الواقع برنامج المتابعة الخاص به، والذى توصلنا بوساطته إلى صديقنا (يورى) .

انقطع البث بغتة، على شاشة التلفاز، فاتسعت ابتسامة (أدهم)، وهو يقول :

ـ آه .. لاريب فى أن رجال المخابرات الروسية قد توصلوا الآن، إلى منطقة البث الآلى، وأوقفوا الأجهزة، التى تركناها تعمل؛ للسيطرة على نظم البث الرئيسية، ومواصلة بث برنامجنا الزائف المسجّل .

احتقن وجه (يورى) أكثر، وهو يتطلّع إليه بمقت هائل، قبل أن يقول فى بطء، من بين أسنانه :

ـ وكنت واثقًا من أننى سأجلب خبير الاتصالات؛ ليؤدى عمله إلى جوارى .

مطّ (أدهم) شفتيه، وهزّ كتفيه، قائلاً :

ـ مع شخص ديكتاتورى النزعة، لايثق حتى فى أصابعه، ويتصوّر دومًا أنه الأكثر ذكاءً، كان من الطبيعى أن تفعل هذا، فالموقف بكل توتره، لم يكن يسمح بحدوث أدنى خطأ .

لم يستطع (يورى) أن يعلّق على ماقاله (أدهم) هذه المرة ..

ففى حلقه، كانت هناك غصّة ..

غصة مؤلمة، تفيض بطعم المرارة والهزيمة، وتحتبس فى حلقه، حتى ليعجز تمامًا عن النطق ..

ولدقيقة كاملة، ساد خلالها الصمت فى المكان،

بدا له وكأن أبشع مشهد شاهده فى حياته ، هو ابتسامة (أدهم) الساخرة ، ووقفته الواثقة القوية ، وهو يتطلع إليه على هذا النحو ..

ولكن كيانه كله انتفض فى أعماقه ..

كل ذرة منه رفضت الهزيمة ..

وبعنف ..

وبجهد خارق ، تجاوز شعوره بالمرارة ، وهو يقول :

ـ فليكن يا سيد (أدهم) .. لقد ربحت هذه الجولة .

أطلق (أدهم) ضحكة ساخرة مستفزة ، قبل أن يقول :

ـ بل ربحت المعركة كلها يا رجل .

زمجر (يورى) فى غضب وحشى ، وهو يقول :

ـ ليس بعد أيها المصرى .. صحيح أنك قد نجحت فى كشف وكرى هذه المرة ، ولكن غرورك جعلك

تقف أمامى هنا ، معقود الساعدين أمام صدرك ، ودون أن تحمل أية أسلحة .

نبهت كلماته (زوشا) ، وانتزعتها من حالة الذهول والارتباك ، فاستلت مسدسها بحركة سريعة ، وصوبته نحو (أدهم) ، الذى ألقى عليها نظرة غير مبالية ، وهو يقول :

ـ لم يعد هذا يهم يا (يورى) ، فأنا طليعة الغزو فحسب ، أما فى الخارج ، فالأمور تختلف تمامًا ..

ندت من (يورى) حركة متوترة وهو يتساءل :

ـ كيف ؟

لم يفهم خبير الاتصالات حديثهما ، ولكنه اندفع فجأة يقول ، بكل ذعر وخوف الدنيا :

ـ أريد أن أرحل .. لاشأن لى بصراعكما هذا .

استدار إليه (يورى) ، بكل الغضب والوحشية ، صائحًا :

ـ اصمت أيها الحقير .

ابتسم (أدهم) مرة أخرى ، وهو يشير بيده ، قائلاً باللغة الفنلندية :

- اطمئن أيها الخبير .. المكان كله تتم محاصرته الآن ، تحت قيادة الكولونيل (سيرجى كوربوف) ..

قال (يورى) فى بطء حذر متحفز ::

- الكولونيل (كوربوف) هذا متهم بالعمالة لنا ، ولم يعد يحمل أية صفة رسمية أو قانونية .

هزّ (أدهم) كتفيه ، قائلاً :

- ومن يحتاج إلى صفات رسمية أو قانونية ؟! الكولونيل (كوربوف) يعمل على رأس فريق من الشرفاء ، الذين لم تنجحوا فى شراء ذممهم بعد ، وبإلقائهم القبض عليك ، ستتغيّر أمور كثيرة .

وعاد يعقد ساعديه أمام صدره ، مستطردًا :

- هيا يا (يورى) . اعترف بأنك قد خسرت المعركة .

انتفض جسد (يورى) كله ، وهو يهتف فى شراسة :

- محال .

ثم استعاد وحشيته وصرامته بغتة ، وهو يتحرك فى المكان ، متابعًا :

- من الواضح أنك قد وقعت فى الخطأ ذاته ، الذى وقعت فيه أنا أيها المصرى .

وارتفعت سبابته ، تشير إلى (أدهم) ، وهو يضيف فى حدة :

- تصوّرت أنك الأكثر ذكاءً وبراعة .

سأله (أدهم) فى سخرية :

- ما رأيك أنت ؟!

صاح به (يورى) فى غضب :

- رأيى أنه بإشارة واحدة من سبابتى ، يمكننى أن آمر (زوشا) بإطلاق النار ، على رأسك مباشرة ..

ارتكن (أدهم) بكتفه إلى الجدار المجاور له ، وهو يقول فى لا مبالاة :

- يمكنها أن تحاول .

سرى توتر عنيف فى جسد (زوشا) ، وهى تقول :

- هل أطلق النار عليه يا (يورى) ؟!

كانت تصوِّب مسدسها إلى رأس (أدهم) فى تحفُّز متوتر ، ولكن (يورى) تطلَّع إليها فى صمت ، قبل أن يواصل تحركه فى القبو ، قائلاً :

- قل لى يا سيِّد (أدهم) : لماذا فى رأيك اخترت هذا القبو بالتحديد ، عندما شعرت بالخطر ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء :

- لأنه لن يخطر ببال أحد .

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (يورى) ، على الرغم من عصبيته الواضحة ، وهو يقول :

- أتعتقد هذا ؟!

ثم انطلقت من حلقه ضحكة شيطانية عالية ، جلجلت فى القبو ، على نحو انكمش معه خبير الاتصالات الفنلندى ، وراح يرتجف فى رعب هائل ، قبل أن

يلوِّح (يورى) بذراعه كلها ، وهو يرتكن بظهره إلى جدار القبو ، وتتألق عيناه على نحو مخيف ، مضيفًا :

- الواقع أن هناك سببًا آخر يا رجل المخابرات المصرى .. سببًا ربما لن يخطر ببالك قط .

الثقة التى نطق بها كلماته ، جعلت (أدهم) يعتدل ، وهو يسأله فى حذر :

- أى سبب هذا ؟!

رفع (يورى) قبضته ، وهو يقول فى صرامة وحشية :

- سبب لم يدخل فى حساباتكم قط .

ثم صرخ بغتة :

- (زوشا) .. أطلقى النار .

وقبل حتى أن تكتمل صرخته ، ضغطت (زوشا) زناد مسدسها ..

وانطلقت الرصاصة ..

انطلقت نحو رأس (أدهم) ..

نحو الهدف مباشرة ..

ولكن رد فعل الهدف كان يفوق رد فعلها بمرتين على الأقل ..

ففى نفس اللحظة، التى بدأ فيها (يورى) صرخته، وثب (أدهم) جانبًا ..

ثم انقضّ على (زوشا) بكل قوته ..

وانطلقت رصاصة (زوشا) ..

انطلقت لتتجاوز رأس (أدهم)، بثلاثين سنتيمترًا على الأقل ..

وقبل أن تضغط زناد مسدسها مرة أخرى، قبضت أصابعه الفولاذية على معصمها، و(أدهم) يقول فى صرامة :

ـ فى المعتاد، لست أميل إلى قتال النساء .

أطلقت صرخة قتالية، وهى تدور فى مرونة، ثم تركله بكل قوتها، صائحة :

ـ لا تفعل إذن .

تفادى ركلتها فى خفة، ولوى ذراعها فى قوة، قائلاً :

ـ مع عضلات بارزة كهذه، فقدت سمة رئيسية، من سمات النساء .

حاولت أن تلكمه بكل قوتها، صارخة :

ـ المهم سمات المقاتلين .

مرة أخرى تفادى اللكمة، ثم قال فى صرامة :

ـ الوقت يمضى، والضرورات تبيح المحظورات .

تلقفها، وهوى على فكها بلكمة كالقنبلة، أطلقت معها شهقة مذعورة متألمة، قبل أن تسقط أرضًا ..

وقبل حتى أن يكتمل سقوطها، استدار (أدهم) يبحث عن (يورى إيفانوفيتش) ..

ثم انعقد حاجباه فى شدة ..

فباستثناء (زوشا) الملقاة أرضًا ، و (أندرسن) الذى يرتجف رعبًا ، كان المكان خاليًا ..

تمامًا ..

* * *



فباستثناء (زوشا) الملقاة أرضًا ، و(أندرسن) الذى يرتجف رعبًا ، كان المكان خاليًا ..

٧ ـ الأسد والذئب ..

لم تكد تلك السيارة الروسية ، التى تقلّ (منى) ، تتوقف إلى جوار سيارة (سيرجى كوربوف) ، على مسافة ثلاثين مترًا من المبنى القديم ، لدار القضاء فى (موسكو) ، حتى وثبت منها هذه الأخيرة ، وتصاعدت الآلام من جرح عنقها ، وهى تسأل رجل المخابرات الروسى فى انفعال :

ـ أين (أدهم) ؟!

أشار (سيرجى) بيده ، وهو يجيبها ببروده المعهود :

ـ لقد سبقنا إلى الداخل .

هتفت فى انزعاج :

ـ وحده ؟!

تطلّع (سيرجى) إلى عينيها ، بضع لحظات فى برود ، قبل أن يجيب فى صرامة :

ـ إنه دائمًا وحده .

أحنقها تعليقه ، الذى يتجاهل عملياتها المشتركة مع (أدهم) ، فغمغمت فى عصبية :

ـ ليس دائمًا ..

خُيّل إليها أنها قد لمحت شبح ابتسامة على شفتيه ، فانعقد حاجباها ، وهى تسأله فى شىء من الحدة :

ـ وماذا تفعلون أنتم هنا ؟!

أجابها بنفس البرود :

ـ نحاصر المكان كله .. لانريد ترك ثغرة واحدة ، يمكن أن يستغلها ذلك الوغد (يورى) للفرار .

ثم سألها فجأة :

ـ أين زميلك ؟!

مطت شفتيها ، وهى تقول :

ـ لن يمكنهما خوض أمر كهذا الآن ، فكلاها مصاب ، على نحو يجعل حركته عسيرة ، و ....

قبل أن تتمّ عبارتهـا ، سمع الجميع دوى تلك الرصاصة ، من داخل القبو ، فصرخت (منى) :

ـ يا إلهى ! (أدهم) .

وانعقد حاجبا (سيرجى) ، وهو يعتدل فى مقعده ، صائحًا ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى المحدود :

ـ هجوم .

مع صيحته ، وثب من سيارته ، وانطلق خلف (منى) ، التى استلت مسدسها ، فور سماعها ، دوى الرصاصة ، واندفعت بكل كيانها ومشاعرها نحو القبو ..

فى نفس اللحظة ، كان (أدهم) يستدير إلى خبير الاتصالات الفنلندية ، الذى راح يرتجف كريشة فى مهب الريح ، وقد بلغ منه الرعب مبلغه ، ويهتف به :

ـ أين ذهب ذلك الوغد ؟!

أشار الرجل إلى الجدار ، الذى كان يستند إليه (يورى) ، وهو يهتف ، بكل رعبه وانهياره :

ـ هناك .. النفق السرى .. لقد .. لقد ..

قبل أن يتمّ عبارته ، اقتحمت (منى) المكان ، وخلفها (سيرجى) ، وهتفت فى لوعة :

ـ (أدهم) .. أأنت بخير ؟!

أجابها (أدهم) فى صرامة ، حملت رنة غضب :

ـ ذلك الوغد نجح فى الفرار ، عبر نفق سرى ، فى مكان ما هنا .. من الواضح أن هؤلاء القتلة يعشقون لعبة الأنفاق السرية هذه .

ثم تحسّس الجدار براحتيه فى سرعة ، قبل أن يضيف :

ـ ولكننى أجهل كيف فعلها .

هزّ الفنلندى رأسه ، وهو يقول فى انهيار :

ـ لقد ضرب الجدار بقبضته .. لست أدرى أين ، ولكنه فعلها ، فانفتح باب النفق ..

عاد (أدهم) يتحسس الجدار ، فى توتر ملحوظ ، وهو يقول :

ـ لابد من اللحاق بذلك الوغد ، قبل أن يجد وسيلة للاتصال ، فقد سمعته يتحدث عن إشارة ، لو أرسلها إلى عميله فى (القاهرة) ، سيطلق شحنة غاز الأعصاب هناك ، ليبيد ملايين البشر بلا رحمة .

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثين ، وهو يقول :

ـ فلننسف الجدار كله إذن .

لم يكد ينطقها ، حتى سمع من خلفه صوتًا أنثويًا ، يقول :

ـ على الرحب والسعة .

استدار الكل إلى (ريهام) ، التى حملت شفتاها ابتسامة حماسية ، وهى تجرّ ساقها خلفها فى ألم ، وتنتزع من جيبها عبوة صغيرة ، قائلة :

ـ الأطباء نصحونى بالبقاء والراحة بالمستشفى ، ولكننى كنت أعلم أنكم ستحتاجون لوجودى .

ألصقت عبوتها بالجدار ، الذى كان يتحسسه (أدهم) ، وهى تشير بيدها ، قائلة فى حزم :

ـ ابتعدوا .

تراجعوا جميعًا مع إشارتها ، وهتف الخبير الفنلندى :

ـ أريد أن أخرج من هنا .. أرجوكم .

التفت (أدهم) إلى (منى) ، وهو يقول بلهجة آمرة :

ـ أخرجيه من هنا ، واتصلى مباشرة بـ(شريف) ، واطلبى منه أن يبحث ، داخل شبكة المعلومات الروسية ، عن تاريخ المبنى القديم لدار القضاء هنا ، وعن أية أنفاق هروب سرية أتى ذكرها .

قالت فى توتر :

ـ أريد أن أبقى إلى جوارك .

صاح بها فى صرامة :

ـ أطيعى الأوامر أيتها المقدّم .

ثم انخفض صوته ، وهو يمسك كتفيها ، ويتطلّع إلى عينيها مباشرة ، مستطردًا فى حزم :

ـ إنه لمن (مصر) يا (منى) .. (مصر) .

مع آخر حروف كلماته ، دوى انفجار مكتوم داخل القبو ، وانهار ذلك الجزء من الجدار ، ليظهر خلفه نفق قديم ، يمتدّ إلى مدى البصر ، وغمغمت (ريهام) ، وهى تزيح سحب الغبار بكفها :

ـ لقد حرصت على أن يكون انفجارًا محدودًا ، حتى لاتنشأ عنه موجة تضاغطية قوية ، فى قبو مغلق كهذا ، ولكننى لا أستطيع التحكُّم فى الغبار الناشئ .

لم يسمعها (أدهم) ، وهو يلتفت إلى (سيرجى) ، قائلاً فى حزم :

ـ ابحث عن مخرج هذا النفق يا (سيرجى) ..

حاول أن تمنع ذلك الوغد من إرسال إشارته القاتلة .. وبأى ثمن .. هل تفهمنى يا (سيرجى) ؟!

أومأ (سيرجى) برأسه فى حزم صارم ، ورفع مسدسه إلى جوار وجهه ، وهو يقول بمنتهى الصرامة :

ـ نعم يا (أدهم) .. بأى ثمن .

ثم التقط من جيبه مصباحًا يدويًا ، ألقاه إليه ، قائلاً فى حزم :

ـ إنك ستحتاج إلى هذا .

لم يكد (أدهم) يلتقط المصباح اليدوى ، حتى ألقت إليه (منى) مسدسها ، هاتفة :

ـ وهذا أيضًا .

التقط (أدهم) المسدس بدوره ، ثم استدار إلى مدخل النفق المنهار ، وانطلق يعدو عبره ، بأقصى سرعة ممكنة ، وفى أعماقه يتردد هتاف قوى ..

(مصر) يا (أدهم) ..

ابذل كل ماتستطيع من أجل (مصر) ..

حياتك نفسها، لو اقتضى الأمر ..

أما (سيرجى)، فقد انتظر بضع لحظات، حتى ابتعد (أدهم)، ثم استدار إلى اثنين من رجاله، وأشار إليهما فى حزم، قائلاً:

- احميا ظهره.

اندفع الرجلان بدورهما إلى النفق، لتبدأ مطاردة عنيفة جديدة ..

مطاردة بين ذئب روسى مفترس ..

وأسد ..

أسد اسمه (أدهم) ..

(أدهم صبرى) ..

* * *

بكل غضب الدنيا، راح جسد (يورى إيفانوفيتش) ينتفض، وهو يعدو عبر ذلك النفق القديم، الذى تم

حفره فى عهد القياصرة، كوسيلة لفرار القضاة من بطشهم، إذا ما أصدروا يومًا حكمًا يغضبهم ..

كان نفقًا قصيرًا، انتهى به إلى ساحة مبنى مهجور، على الجانب الآخر من الطريق، ولم يكد (يورى) يتجاوزه، حتى توقف لحظة، ليسمع وقع أقدام (أدهم)، الذى يعدو خلفه، ورجلا (سيرجى) من خلفه، ثم غمغم فى عصبية وحشية:

- قلت لك: إنك قد ربحت جولة فحسب أيها المصرى، ولكنك لم تربح المباراة بعد.

قالها، واستدار إلى جانب المخرج، وجذب جهازًا مخفيًا فيه بمهارة، وضغط أحد أزراره، قبل أن يثب مبتعدًا، وهو يتابع فى شراسة:

- هيا .. اقترب أكثر أيها المصرى .. اقترب.

وتألقت عيناه، وهو يتجه نحو سيارة رياضية مكشوفة، بدت وكأنها تقف فى انتظاره، فى قلب الساحة، وهو يضيف بمقت وحشى:

- ففى انتظارك مفاجأة ..

وثب داخل السيارة ، فى نفس اللحظة التى تحرك فيها حاجز من القضبان الفولاذية ، ليغلق مخرج النفق ، ويلتقى برتاج يتصل بذلك الجهاز ، الذى ضغطه منذ لحظات ..

وفى حزم ، أدار (بورى) محرك السيارة ..

ولكنه لم ينطلق بها ..

لقد تألقت عيناه ، وعلت شفتيه ابتسامة وحشية ، وهو يدير رأسه ، ليتطلع إلى مخرج النفق المغلق ، وكأنه ينتظر وصول (أدهم) ..

ولم تمضى لحظات ، حتى وصل رجل المخابرات المصرى بالفعل ..

وعند ذلك المخرج المغلق ، توقف (أدهم) ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتطلع عبر القضبان الفولاذية إلى (بورى) ، الذى بدا ظافرًا كذئب نال فريسته ، وهو يقول فى وحشية :

ـ عظيم أنك قد وصلت بسرعة أيها المصرى ؛ فلم أكن لأحتمل الانتظار طويلاً ..

وعادت عيناه تتألقان ، وهو يستدير بجسده كله إلى (أدهم) ، مستطردًا :

ـ والآن ماذا تنتظر ؟! لماذا لا تطلق علىّ النار وأنا أعزل ، كما فعلت مع شقيقى (إيفان)(*) ؟!

أدار (أدهم) عينيه ، إلى ذلك الجهاز الصغير ، المتصل برتاج الحاجز ، و(بورى) يتابع ، فى سخرية وحشية مستفزة ، وهو يرفع يديه عاليًا :

ـ هيا .. افعل .. أعدك ألا أقاومك قط .

فجأة ، وقبل أن يجيبه (أدهم) ، برز رجلا (سيرجى) من خلفه ، وأزاحه أحدهما عن طريقه ، وهو يقول فى حزم :

ـ ابتعد يارجل المخابرات المصرى .. سننسف هذا الباب .

(*) راجع قصة (الأبطال) .. المغامرة رقم (١٣٤)

صاح (أدهم) بهما :

ـ لا .. لاتحاولا .

ولكن صيحته ضاعت فى الهواء ، مع دوى رصاصات مدفعيهما ، وهما يطلقان النار على رتاج الحاجز ، و ...

وبكل قوته ، ألقى (أدهم) جسده أرضًا ، وأخفى رأسه بذراعيه ، وهو يغلق عينيه فى قوة ..

ودوى الانفجار ..

تحطم رتاج الحاجز ، أشعل فتيلة ، بوساطة ذلك الجهاز المتصل به ، لتنسف جزءًا من المخرج ، فى وجه رجلى (سيرجى) مباشرة ..

ومع الانفجار ، تألقت عينا (يورى) أكثر وأكثر ، وهو يقول ، بلهجة حملت كل وحشيته وجنونه :

ـ الجولة الأخيرة أيها المصرى .

واعتدل يمسك عجلة القيادة فى قوة ، مضيفًا :

ـ ربحها (يورى) .

لم يكد ينطق عبارته ، حتى اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدق فى مرآة السيارة ، التى عكست صورة (أدهم) ، وهو يخرج من بين حطام المخرج ، ممزق السترة ، والدماء تنزف من جرح بجبهته ..

وصرخ (يورى) ، وهو يضغط دواسة الوقود فى قوة :

ـ لا .. مستحيل !

أطلقت إطارات السيارة صرخة عالية ، قبل أن تنطلق إلى الأمام بحركة حادة عنيفة ..

ومن خلفها ، انطلق (أدهم) كالصاروخ ..

ولم يُصدق (يورى) عينيه ..

كان ينطلق بالسيارة الرياضية المكشوفة ، بأقصى سرعة ممكنة ، داخل تلك الساحة وعلى الرغم من هذا ، كانت المسافة التى تفصله عن (أدهم) تبدو شبه ثابتة ، وكأنما تخلى هذا الأخير عن كيانه البشرى ، وتحول إلى آلة للعدو ..

آلة لاتعرف التراجع أو الاستسلام ..

وبكل مقت الدنيا ، أدار (يورى) عجلة القيادة ، واندفع بالسيارة نحو الباب الخشبى الكبير للساحة ، صارخًا :

ـ لا أيها المصرى .. لن تربح معركتك مع (يورى) .. أبدًا .

كان ينطلق مباشرة نحو الباب الخشبى الكبير ، عندما رأى (أدهم) ينفصل عنه ، ويعدو نحو كومة من الأحجار ، عند سور الساحة ، المجاور للباب الخشبى ..

وارتطمت سيارة (يورى) بالباب ..

وحطمته ..

ثم اندفعت تتجاوزه إلى الطريق ..

وفى نفس اللحظة ، وثب (أدهم) فوق كومة الأحجار ، وذلك الهتاف مازال يتردد فى أعماقه ..

(مصر) يا (أدهم) .. افعل كل مايمكنك ، من أجل (مصر) ..

ولم تكد قدماه تستقران فوق كومة الأحجار ، حتى استمد جسده طاقة هائلة ، من إرادته الفولاذية ، ووثب مرة أخرى ، ليتجاوز سور الساحة ، ويدور حول نفسه دورة أفقية مدهشة ، ثم يهبط ..

فوق سيارة (يورى) مباشرة ..

وبكل ذهوله وغضبه ، رأى (يورى) تلك المشهد ، فى مرآة سيارته ..

ولم يصدّق عينيه ..

على الرغم من أنه قد قرأ ملف (أدهم) كاملاً ، إلا أنه لم يتخيّل قط قدرة أى بشرى ، على أن يفعل مارآه بعينيه فى تلك اللحظة ..

ولكن ذهوله لم يمنعه من زيادة سرعة السيارة أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ومع تلك الوثبة المباغتة، التى ارتبطت بزيادة السرعة، لم يهبط (أدهم) فى منتصف سيارة (يورى) ..

وإنما على مؤخرتها ..

ومع هبوطه فوقها، انزلق جسده، ووجد نفسه يسقط منها، فى سرعة وعنف ..

وصرخ (يورى):

ـ اذهب أيها المصرى .. اذهب ..

حاول (أدهم) أن يتشبّث بأى شىء، فى مؤخرة السيارة؛ ليمنع جسده من السقوط ..

أى شىء!

ولكن مؤخرة السيارة الرياضية المكشوفة كانت مائلة إلى أسفل، وزلقة أكثر مما ينبغى ..

لذا فقد اختلّ توازن (أدهم)، وسقط ..

سقط ليرتطم بالأرض، ويتدحرج عليها فى عنف،

وأذناه تلتقطان صوت إطارات تحتك بأسفلت الطريق فى قوة، مع صرير عال مخيف، يقترب منه بسرعة رهيبة ..

وعلى مسافة أقل من نصف متر منه، تفاداه راكب دراجة آلية فى صعوبة، واختلّ توازن دراجته، ليسقط معها أرضًا، وهو يطلق سبابًا روسيًا ساخطًا ..

أما (يورى)، فقد أطلق ضحكة ساخرة عالية متوحشة وهو يهتف:

ـ خسرت أيها المصرى .. خسرت ..

كان (أدهم) يشعر بآلام مبرّحة، فى كل عظمة من عظام جسده، وجرح جبهته ينزف فى غزارة، لتسيل الدماء على وجهه وعينيه ..

ولكن ذلك الهتاف ظلّ يتردّد فى أعماقه ..

« (مصر) يا (أدهم) .. »

« (مصر) .. »

ومع الطاقة الهائلة ، التى تدفقت فى عروقه ، وثب إلى الدراجة النارية المقلوبة ، وجذبها لتعتدل ، ثم وثب إلى مقعدها ، وصاحبها يهتف فى ذهول مذعور ؟!

ـ ماذا تظن أنك تفعل يا هذا ؟!

ولكنه لم يحصل على جواب من (أدهم) ، الذى انطلق بالدراجة النارية كالصاروخ ، خلف سيارة (يورى) ، الذى انعقد حاجباه فى غضب جنونى ، وهو يضغط دواسة الوقود أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

كان ينطلق كالمجنون ، فى الطريق الرئيسى للعاصمة الروسية ، فى تلك الساعة المبكرة ، التى لم تزدحم الشوارع فيها بعد ، غير مبال بالسيارات القليلة ، التى أصاب قادتها الذعر ، وحاولوا تحاشيه بأى ثمن ..

ومع نزعته الأنانية المفرطة ، كان من الطبيعى أن يرتطم بسيارة أو سيارتين منها ، قبل أن يتابع انطلاقته ، بأقصى سرعة ممكنة ..

وعلى نحو مخيف ، كانت الدراجة النارية ، التى يقودها (أدهم) بمهارة مذهلة ، تقترب منه أكثر ..

وأكثر ..

وبكل غضبه وثورته ، هتف (يورى) :

ـ هاتف واحد ، من هواتف الأقمار الصناعية ، وتدفع بلادك ثمنًا غاليًا لعنادك أيها المصرى ..

مع هتافه ، انحرف بسيارته الرياضية فى حركة حادة ، إلى طريق رئيسى آخر ..

طريق له اتجاه واحد ..

عكسى ..

وكانت مفاجأة مخيفة ، لقادة السيارات القليلة ، التى تنطلق فى ذلك الطريق ، عندما وجدوا سيارة

طائشة ، تندفع فى وجوههم مباشرة ، عكس اتجاه السير القانونى ..

ومن الطبيعى ، مع موقف كهذا ، أن يفقد البعض توازنهم ، وسيطرتهم على سياراتهم ، فانحرفت فى عنف ، فى محاولة لتفادى تلك القنبلة غير المسئولة ، وارتطم بعضها بالبعض ، أو بالسيارات المتوقفة على الجانبين ..

ولكن (يورى) لم يبال ..

وهذا أمر طبيعى ، مع رجل أباد ملايين البشر ، دون أن يطرف له جفن ..

وفى سرعة ومهارة مذهلتين ، انحرف (أدهم) خلفه ، فى ذلك الطريق العكسى ، وهو يغمغم فى صرامة :

ـ ذلك الوغد بلغ ذروة الحقارة .

كان من الواضح أن الروسى مجنون حتمًا ، وهو ينطلق على هذا النحو ، مما جعل (أدهم) يوقن من أمر واحد ..

أن الأمر يحتاج إلى من هو أكثر جنونًا ..

ودون ذرة واحدة من التردد ، وثب (أدهم) بالدراجة النارية إلى الإفريز ، وزاد من سرعتها ، وهو ينطلق فوقه كالصاروخ ، والمسافة بينه وبين سيارة (يورى) تقل ..

وتقل ..

وتقل ..

وبدفعة قوية أخيرة ، تجاوز السيارة بمتر أو مترين ، و ....

وفجأة ، انحرف جانبًا ، وتجاوز الإفريز ، وجذب إليه مقود الدراجة بكل قوته ، لتعلو أحد القوائم الأسمنتية القصيرة ، التى تحمل إحدى العلامات الإرشادية ، ثم وثب بها ..

وفى مشهد رهيب ، اتسعت معه عيون كل قادة السيارات ، طارت الدراجة النارية عبر الطريق ، لتهبط أمام سيارة (يورى) مباشرة ..

وعلى الرغم من رهبة المشهد وهوله ، إلا أن هذا لم يكن كل شيء ..

فما فعله (أدهم) ، في الجزء التالي من الثانية ، وقبل حتى أن ترتطم دراجته النارية بالأرض ، كان مذهولاً بحق ..

كان أداءً يشف عن أعلى درجة ممكنة ، في التوافق العصبي العضلي ، على نحو لم يشهده بشري من قبل ..

فبينما كانت الدراجة النارية تهوي ، وثب منها (أدهم) ، وهبط بقدمه اليسرى على مقدمة سيارة (يوري) ، ثم وثب مرة أخرى ، مستخدمًا القدم نفسها ، ليدور جسده المرن في الهواء ، دورة رأسية نصف أفقية ، هبط بعدها على المقعد المجاور لزعيم (المافيا) الروسية تمامًا ..

وفي ذهول ، وعلى الرغم من ارتطامه بالدراجة النارية ، وإزاحته لها تمامًا عن الطريق ، بعنف أيقظ المنطقة كلها ، حدق (يوري) في (أدهم) ، الذي قال في سخرية ، وهو يقبض على عنقه :

- قل لي أيها الوغد : هل وصلت في موعد غير مناسب ؟!

كانت أصابع (أدهم) قوية ، تكاد تنغرس في عنق الروسي ، إلا أن هذا الأخير ، وعلى عكس المتوقع ، مع موقف خرافي كهذا ، زاد من سرعة سيارته أكثر ، وهو يصرخ :

- ربما كنت بهلوانًا مدهشًا أيها المصري ، ولكنك نسيت أمرًا واحدًا .

سأله (أدهم) في سخرية ، وهو يستل مسدسه :

- وما هو أيها الوغد القطبي .

أدار (يوري) عجلة القيادة بحركة حادة ، وهو يصرخ:

- أنك لا ترتدي حزام الأمان .

قالها ، وهو يندفع عمدًا ، نحو جرافة ثلج كبيرة ، متوقفة إلى جانب الطريق(*) ..

(*) جرافة الثلج : عربة أشبه بالجرار الزراعي ، ولكن مقدمتها تحمل سلاحًا حادًا ضخمًا ، بحيث يمكنها رفع كتل الثلج عن الطرقات ، لإفساح الطريق أمام السيارات ، وهي إحدى المعدات الثقيلة .

وبمنتهى العنف، ارتطمت سيارته بالجرافة القوية ..

ومع عنف الصدمة، كان من الطبيعى أن يندفع جسد (أدهم) إلى الأمام، ويطير مرتطمًا بالزجاج الأمامى، للسيارة الرياضية المكشوفة، فيحطمه فى عنف، ويتدحرج على مقدمة السيارة، مرتطمًا بجسم جرافة الثلج بدوره..

أما (يورى)، فقد حماه حزام الأمان فى مقعده، من عنف الارتطام، فأطلق ضحكة عالية ظافرة وحشية، وهو يصرخ:

ـ أرأيت أيها المصرى .. إنك لم تبلغ القدر الكافى بعد؛ لهزيمة عبقرى مثل (يورى إيفانوفيتش).

تطلّع لحظة إلى جسد (أدهم)، الملقى على مقدّمة السيارة المحطمة، والمستند إلى جسم جرّافة الثلج الضخمة، ويده مازالت قابضة على مسدسه، ثم حلّ حزام مقعده، قائلاً فى وحشية:

ـ والآن، ينبغى أن تدفع الثمن.

غادر بقايا السيارة، وعيناه تدوران فيما حوله فى حذر، و ....

وفجأة، توقّف بصره عند لافتة متجر، على الجانب الآخر للطريق ..

متجر يبيع هواتف الأقمار الصناعية ..

وكذئب مفترس، ظفر على التو بفريسة دسمة، كشّر (يورى) عن أنيابه، وهو يبتسم ابتسامة وحشية، ويزمجر مع تألّق عينيه الشيطانى، قائلاً فى شماتة:

ـ آه .. إشارة الفناء لن تتأخّر كثيرًا أيها المصرى ..

ثم عاد يدير عينيه إلى (أدهم)، مضيفًا فى مقت:

ـ ولكنك لن تحيا لتشهد هذا.

نطقها بكل الحزم، وهو يتجه نحو (أدهم)، حيث توقّف أمامه لحظة قبل أن يجذب المسدس من يده، ويصوّبه إلى رأسه، قائلاً بكل مقت وكراهية الدنيا:

ـ وداعًا يا رجل المخابرات المصرى ..

وضغط الزناد.

* * *

٨ـ النهـــاية ..

« هناك سـيارة مشتبه بها ، فى موقـف سيارات ميدان التحرير .. »

نطق أحد ضباط الشرطة العبارة ، وهـو يقف أمـام وزير الداخلية ، الذى هتف فى توتر :

ـ حقًا ؟! هل تأكدتم ؟!

انتبـه مدير المخـابرات بحواسـه كلهـا ، لكلمـات ضابط الشرطة ، وهو يجيب وزيره :

ـ إنها أحد الطرازين المشتبه فيهما ، ولكنها تحمل لوحة أرقام زائفة ، تخص سيارة صغيرة ، تم الإبلاغ عن سرقتها ، منذ ثلاثة أيام ، ثم إنها ليست من السيارات مستديمة المبيت ، فى ذلك الموقف ، ولا أحد هناك يعرف صاحبها بالتحديد .

قال مدير المخابرات ، فى خشونة لم يتعمدها :

ـ هذا ليس إثباتًا كافيًا .

ثم استدار إلى وزير الداخلية ، مستطردًا فى حزم :

ـ لابد من إرسال خبير .

أشار إليه الوزير ، مغمغمًا :

ـ افعل بالله عليك .

ولـم تمض عشرون دقيقة ، على عبارته هذه ، حتى كان فريق من الشرطة والمخابرات يحيط بتلك السيارة ، التى انهمك الخبير فى فحصها ، بمنتهى الدقة والحذر ، وبكل الوسائل التكنولوجية المتاحة ، قبل أن يعتدل مجففًا عرقه ، وهو يقول فى انفعال :

ـ إنها هى .

تألقت العيون فى ظفر ، وهتف أحد ضباط الشرطة ، وهو يرفع جهاز الاتصال اللاسلكى إلى شفتيه :

ـ لابد من إبلاغ سيادة الوزير فورًا .

أشار إليه الخبير بسبابته ، قائلاً :

ـ مهلاً .. صحيح أن هذه هى السيارة المنشودة ، ولكن عثورنا عليها لن يُغيّر من الأمر شيئاً ..

سأله أحد رجال المخابرات ، فى قلق شديد :

ـ ماذا تعنى ؟!

هزّ كتفيه ، قائلاً :

ـ السيارة ، على الرغم من شكلها الخارجى شبه المتهالك ، تحوى نظاماً أمنياً إليكترونياً ، شديد الدقة والتعقيد ، وبداخلها جهاز يعمل على نحو مستمر ومتحفّز ، بحيث أنه لو جرت أية محاولة لفتح أبوابها أو حقيبتها ، لابد أن تنفجر عبوة غاز الأعصاب داخلها ، وانفجارها عندئذ سيكون من العنف ، بحيث لن تحتمله أية خيمة وقائية ، يمكن أن نحيطها بها .

غمغم ضابط الشرطة ، وهو يخفض جهاز الاتصال فى شحوب :

ـ يا إلهى !

تابع خبير المفرقعات ، فى توتر ملحوظ :

ـ ليس هذا فحسب ، ولكن الجهاز نفسه مستعد لاستقبال إشارة ما ، ربما كانت إشارة التفجير ، وهو مزوّد بلاقط شديد الحساسية ، بحيث إذا ما حاولت الشوشرة عليه بأية وسيلة ، فلابد أن ينفجر حتماً .

سأله أحد رجال المخابرات :

ـ كل تكنولوجيا لها تكنولوجيا مضادة .. أليس كذلك ؟!

أومأ الخبير برأسه إيجاباً ، وقال :

ـ بالتأكيد .. إننا نستطيع السيطرة على هذا الموقف المعقّد ، بوساطة بعض الأجهزة الإليكترونية الحديثة جداً ، ولكن هذا يحتاج إلى ثلاث ساعات على الأقل .

ثم رفع عينيه إليهم ، متسائلاً فى توتر أكثر :

ـ فهل لدينا كل هذا الوقت ؟!

تبادل الكل نظرة صامتة ، حملت كل ما يحتمل فى

أعماقهم من توتر وقلق وحيرة ، دون أن يملك أحدهم ، أو حتى قادتهم إجابة السؤال ..

فهل لديهم بالفعل كل هذا الوقت ، قبل أن تتلقى السيارة إشارة إطلاق شحنة الغاز ؟!

هل ؟!

من يدرى ؟!

* * *

حدقت (منى) فى مخرج النفق ، الذى يربط بين المبنى القديم ، لدار القضاء فى (موسكو) ، وساحة ذلك المبنى المهجور ، قبل أن تهتف :

ـ رباه ! لقد دار قتال عنيف هنا :

ووصل (شريف) ، حاملاً جهاز كمبيوتر شخصى متنقل ، فى نفس اللحظة التى انحنت فيها (ريهام) ، لتفحص بقايا المخرج ، قائلة :

ـ إنه جهاز تفجير حديث ، ارتبط برتاج المخرج .

بدا (سيرجى) صارمًا ، وهو يقول :

ـ المهم أن أستاذكم ليس هنا .

ثم تلفّت حوله ، مستطردًا فى حزم :

ـ وهذا يعنى أنه مازال يواصل الصراع ، فى مكان ما .

جرّ (شريف) ساقه المصابة ، وهو يقول فى انفعال :

ـ أهناك ما يمكننى تقديمه ؟!

أجابه (سيرجى) :

ـ نعم أيها الشاب .. يمكنك أن تستعمل براعتك العبقرية فى التعامل مع الكمبيوتر وشبكات المعلومات ؛ لتفسر الاتصالات المباشرة ، بين قيادات الأمن ورجالهم ، خلال الدقائق القادمة ، فلا أريد أن يعترض طريقنا أحمق أو مرتش ، بحجة أننا جميعًا مطلوبون الآن .

قال (شريف) ، وهو يجلس على مقدمة إحدى السيارات :

ـ على الرحب والسعة .

بدأت أصابعه عملها مباشرة ، للاتصال بشبكة المعلومات ، من خلال الأقمار الصناعية ، فى حين هتفت (منى) :

ـ وماذا عن (أدهم) ؟!

أجابها (سيرجى) فى صرامة :

ـ إننا نبحث عنه بالفعل .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى ارتفع أزيز هاتفه المحمول ، فالتقطه بسرعة ، هاتفًا فى لهفة ، نجحت فى اختراق بروده الأسطورى :

ـ ماذا لديك ؟!

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستمع إلى محدّثه ، قبل أن ينهى المحادثة ، ويلتفت إلى (منى) ، قائلاً :

ـ هناك مطاردة عنيفة ، فى شارع (الثورة) .

هتفت بكل لهفتها :

ـ وماذا ننتظر ؟!

ودون إضافة حرف واحد ، انطلق الكل إلى سياراتهم ، وما إن استقرّ (سيرجى) ، أمام عجلة القيادة ، حتى قال بكل صرامة ، وبالتوتر الذى تجيش به نفسه :

ـ المهم أن نصل فى الوقت المناسب ..

نعم .. هذا هو المهم ..

والأكثر خطورة ..

الوقت المناسب ..

* * *

منذ عشرات السنين ، وعلى الرغم من التقدُّم العلمى المدهش ، حار الأطباء ، وحتى لحظة كتابة هذه السطور ، فى فهم واستيعاب وتقييم أمر واحد ..

الإرادة البشرية ..

فهى أمر لايخضع إلى جهاز بعينه، وليس له مركز خاص، بين مراكز المخ(*) .. ولكنه قوة هائلة ..

قوة قادرة على فعل المعجزات ..

ولكنها تحتاج، لكى تتفجر طاقتها، إلى وقود ..

إلى حافز قوى ..

« (مصرى) يا (أدهم) .. »

شىء ما، أطلق هذا الهتاف، فى كل ذرة من كيان (أدهم صبرى)، فى نفس اللحظة، التى انتزع فيها (يورى) مسدسه من يده، وصوبه إليه، بكل صرامة ووحشية، ورغبته فى تصفيته ..

ومع انطلاق الهتاف، استيقظت كل حواس (أدهم) دفعة واحدة ..

كلها ..

وفى نفس اللحظة، التى تحركت فيها سبابة (يورى) بزناد مسدسه، تحركت قبضة (أدهم) إلى أعلى، ولطمته بكل قوتها ..

(*) حقيقة علمية .

وانطلقت رصاصة المسدس بالفعل، ولكن فى لحظة ارتداد جسد الروسى إلى الخلف فى عنف، فضاعت فى الهواء، ليسقط هو على ظهره فى عنف، ويطير مسدسه بعيدًا ..

وعلى الرغم من آلامه المبرحة، ومن جراحه العديدة، والضلع المكسور فى صدره، نهض (أدهم) ..

نهض، وعيناه تشعان بنشاط عجيب، لاتشف عنه هيئته وجراحه، ووجهه الذى تسلل إليه شىء من الشحوب، وهو يقول فى صرامة :

ـ الأمر ليس سهلاً أيها الوغد .

كان من الواضح أن اسم (مصر) قد أطلق فى عروقه طاقة مدهشة .. طاقة جعلته يهبط واقفًا على قدميه، وكل ذرة فى كيانه تئن ألمًا وإرهاقًا ..

ولكن (يورى) اعتدل بغتة ..

اعتدل بحركة حادة، ونظرة غاضبة مجنونة، وهو يصرخ :

ـ وليس مستحيلاً أيضًا .

تراجع (أدهم) ، بكل ماتبقى من قوته ، محاولاً تفادى الرصاصة ، التى أطلقها نحوه (يورى) ، فارتطم جسده مرة أخرى بجسم السيارة ، وشعر بأحد أطراف مقدمتها المحطمة تنغرس فى ظهره ، فى نفس اللحظة التى وثب فيها (يورى) ، واقفًا على قدميه ، وهو يصرخ :

ـ أنت مجرَّد بشر .

ثم أطلق رصاصات المسدس ، نحو خزان وقود السيارة الرياضية المكشوفة ، وهو يعدو مبتعدًا ، خلف جرَّافة الثلج الثقيلة ، مستطردًا :

ـ وكل البشر يموتون .

استنفر (أدهم) كل قواه ، وانطلق يبتعد عن السيارة الرياضية الصغيرة ، و .....

ودوى الانفجار ..

رصاصات مسدس (يورى) ، أشعلت الوقود شبه النقى ، داخل خزانها الكبير(*) ..

(*) فى البلدان التى تنخفض فيها درجات الحرارة إلى ما دون الصفر ، يتم استخدام أنواع أكثر نقاوة من الوقود ، حتى لا تتجمد الشوائب داخله ، وتمنع إدارة المحركات .

وانفجرت السيارة ..

ومع الانفجار ، شعر (أدهم) بلفح النيران فى ظهره ، وبموجة تضاغط عنيفة ، تدفعه أمامها إلى الأمام لعدة أمتار ، قبل أن يرتطم بإحدى السيارات المتوقفة على جانب الطريق ، ويسقط إلى جوارها ..

والعذاب بلا حدود ..

وكل شىء من حوله كان يدور ..

ويدور ..

ويدور ..

ولكن (أدهم) كان يدرك أن الذئب الروسى مازال طليقًا ..

وأنه مازال باستطاعته الحصول على أحد هواتف الأقمار الصناعية ..

وإطلاق الإشارة ..

تلك الإشارة ، التى ستعنى انطلاق الشحنة فى وطنه ..

فى (مصر) ..

شحنة غاز الأعصاب ، التى ستبيد حتمًا الآلاف ..

عشرات الآلاف ..

بل الملايين ..

« (مصرى) يا (أدهم) (مصرى) .. »

تردد الهتاف فى أعماقه بقوة أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وبكل ماتبقى من إرادته وقوته ، نهض (أدهم) ..

نهض ليقف على قدميه كعملاق شامخ ، انعكس على وجهه وهج النيران المشتعلة فى بقايا سيارة (يورى) ، و ....

وفجأة ، دوى صوت ارتطام عنيف ..

ارتطام انتزع بقايا السيارة المشتعلة ، بوساطة

جرافة الثلج القوية ، التى يقودها (يورى إيفانوفيتش) ، وهو يصرخ فى جنون :

ـ يا لك من عنيد ! ألم تمت بعد أيها المصرى ؟!

قالها ، وهو يندفع بالجرافة ، وببقايا السيارة المشتعلة ، نحو بطلنا .. نحو (أدهم) ..

مباشرة ..

* * *

« ألا توجد شرطة فى هذا البلد ؟! »

صرخت (منى) بالعبارة فى سخط عصبى ثائر ، وهى تجلس إلى جوار (سيرجى) ، الذى يقود سيارته ، بأقصى سرعة ممكنة ، عبر شوارع وطرقات (موسكو) ، ثم لوحت بيدها فى حدة ، مستطردة :

ـ الكل أبلغ عن المطاردة ، ودوى الانفجار بلغ مسامعنا من بعيد ، وعلى الرغم من هذا ، لم ألمح سيارة شرطة واحدة ، تتجه إلى حيث نتجه ..

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثان ، وهو يقول :

ـ هذا جزء من الفساد يا سيدتى .

قالت فى عصبية :

ـ مقدّم ياكولونيل (سيرجى) .. لست مجرّد سيدة .. إننى أحمل رتبة مقدم ، فى المخابرات المصرية .

رمقها بنظرة جانبية ، لم تحمل معنى واضحًا ، ثم عاد يلتفت إلى الطريق ، متابعًا ، وكأنه لم يسمعها :

ـ الفساد جعل رجال الشرطة يخشون عصابات (المافيا) هنا ، ويتصوّرون أن تدخُّلهم فى صراعاتهم سيغضب الكبار ، الذين يتلقون رواتب شهرية من المنظمة الإجرامية ، مما سيعود عليهم بالضرر ، لذا فهم ينتظرون ، حتى تهدأ الأمور ، ثم يتدخلون فى النهاية ، لوضع النقاط على الحروف فحسب .

قالت فى حنق :

ـ هذا أفضل أسلوب ، لتقويض دعائم أية دولة ، ونقلها إلى الدرك الأسفل .

قال فى مرارة ، حملها صوته ، ربما لأوّل مرة فى حياته :

ـ هذا صحيح .

ثم عاد حاجباه الكثان ينعقدان ، وهو يتابع :

ـ ولكن كل هذا سيتغيّر بالتأكيد ..

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

ـ إذا ماربح (أدهم) معركته .

وهوى قلبها مع عبارته الأخيرة ، ووجدت نفسها تنكمش فى مقعدها ، وهى تتمنى فى أعماقها لو لم ينطق تلك الكلمة الأولى ..

كلمة (إذا) .

★ ★ ★

(يورى إيفانوفيتش) ، فى تلك اللحظة العصبية ، كان يمتلك كل القوة ، فى وقت يعانى فيه جسد (أدهم) من كل التعب والإرهاق والتهالك ..



وثب (أدهم) جانبًا ، بين سيارتين صغيرتين من السيارات المتوقفة على جانب الطريق ..

وكان من الواضح أنه يدرك هذا ..

فبكل جنونه وغلفه ووحشيته ، انقض بجرافة الثلج التي تحمل بقايا سيارته المشتعلة نحو (أدهم) ، صارخًا :

- كانت هذه سيارتي المفضلة ، ولقد تسببت في تحطيمها أيها المصرى ..

ثم اشتعلت عيناه ، بلهيب يفوق لهيب سيارته ، وهو يضيف :

- لذا فسترحل معها .

وثب (أدهم) جانبًا ، بين سيارتين صغيرتين ، من السيارات المتوقفة على جانب الطريق ، وكل خلية في جسده تئن وتلهث في تهالك ..

وارتطمت الجرافة بالسيارتين ..

وسحقتهما سحقًا ..

ولكن (أدهم) استنفر ما لم ينفد بعد من قواه ،

ووثب فوق إحدى السيارتين ، ثم قفز يتعلق بالجانب البعيد من سلاح الجرافة ، متفاديًا نيران السيارة المشتعلة ، عند الجانب الآخر ..

وبحركة سريعة ، تراجع (يورى) بالجرافة إلى الخلف ، صائحًا :

ـ هذا لن يفلح .

تراجعه جعل السيارة المشتعلة تفلت من سلاح الجرافة ، ولكنه لم يبال بهذا ..

بل ولم يبال بـ (أدهم) ، الذى تسلق سلاح الجرافة بالفعل ، ليواجهه عبر زجاجها الأمامى ، قائلاً فى صرامة ، لم توهنها إصاباته العنيفة :

ـ قلت لك : إن الأمر ليس سهلاً .

دار (يورى) بالجرافة عبر الطريق ، وهو يصرخ :

ـ وأنت قلت : إنه ليس مستحيلاً .

ثم اندفع بها ، مستطردًا :

ـ فأنت لا تتعلم من أخطائك .

استدار (أدهم) بحركة سريعة ، ورأى الجرافة تندفع نحو متجر هواتف الأقمار الصناعية ، و(يورى) يصرخ فى ظفر وحشى مزهو :

ـ وأنا أجيد ضرب كل العصافير بحجر واحد ..

وبمنتهى العنف ، ارتطمت الجرافة بواجهة المتجر ..

وحطمتها تمامًا .

وبكل العنف أيضًا ، شعر (أدهم) بجسده يندفع إلى الأمام ، ويرتطم بقائم معدنى للعرض ، على نحو صرخ له جسده ، قبل أن يهوى أرضًا ، وبقايا الزجاج تتناثر من حوله ، وتتساقط فوقه ، فى نفس اللحظة التى انفصل فيها كابل الكهرباء الرئيسى للمتجر ، وكاد يهوى على رأسه مباشرة ، لولا أن تعلق طرفه بقائم عرض معدنى آخر ، فى اللحظة الأخيرة ..

وفى تلك الجو الرهيب ، ووسط شرارات الكهرباء ، التى راحت تصدر فرقعة وفرقعة مخيفتين ، هبط (يورى) من الجرَّافة بهدوء ظافر مخيف ، وهو يقول :

– أخبرتك أنه من العسير أن تهزمنى أيها المصرى .

كان مسدس (أدهم) مازال فى قبضته ، وهذا الأخير ملقى فى منتصف المتجر ، وقد تهالك جسده أو كاد ، فارتسمت على شفتى الروسى ابتسامة وحشية ، وهو يضيف :

– هل تعلم ؟! فى البداية ، كنت مصرًا على قتلك أولاً ، ثم إبادة مواطنيك بغاز الأعصاب فيما بعد .

وتألقت عيناه فى جنون ، وهو يكمل :

– أما الآن ، فقد غيرت رأيى .

وفى هدوء ، ودون أن يترك المسدس ، انحنى يلتقط أحد هواتف الأقمار الصناعية ، قائلاً :

– هذه الهواتف تحوى خطًا قابلاً للعمل فورًا ، وبطارياتها دومًا تحمل شحنة مناسبة ؛ للتجربة قبل الشراء ، وكل ما أحتاج إليه هو تلك الشحنة البسيطة .

ولوَّح بالهاتف ، وهو يبتسم فى ظفر وحشى ، مستطردًا :

– فكل ما سأرسله به هو إشارة واحدة .

« (مصر) يا (أدهم) .. (مصر) .. (مصر) .. »

كان الهتاف يتردد بقوة أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ولكن العجيب أن جسد (أدهم) لم يستجب هذه المرة ..

شىء ما فى تركيبته البشرية ، لم يعد يتفاعل جيدًا مع إرادته الفولاذية ..

شىء ما ، لم يستطع فهمه ..

صحيح أنه يستطيع تحريك أطرافه ..

ولكن ليس إلى الحد الكافى للقتال ..

لقد حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكن دون جدوى ..

«فى لحظة ما ، سينهار جسدك يا (أدهم) ..»

استعاد عقله عبارة شقيقه الدكتور (أحمد) ، فى تلك اللحظة ، فامتلأت نفسه بمرارة لاحصر لها ..

إذن فهذا هو الانهيار الجسدى ، الذى حذروه منه ..

ولكن لماذا ؟!

لماذا الآن بالتحديد ؟!

لماذا ؟!

لم يدرك (يورى) ما أصاب خصمه بالضبط ، ولكنه أدرك بغريزته كذئب ، أنه لم يعد قادرًا على قتاله بنفس الكفاءة ، لذا فقد تألقت عيناه أكثر وأكثر ، وهو يشعل الهاتف ، قائلاً :

ـ إشارة بسيطة ، من رمزين فحسب ، تكفى لإلحاق الهزيمة بك ، وبموطنك .. بل وبالعالم كله .

أطلق ضحكة وحشية جنونية عالية ، وهو يصوّب مسدسه إلى (أدهم) ، قبل أن يقول :

ـ والآن استعد أيها المصرى .. سأضغط زر الإرسال أولاً ، ثم أمنحك عشر ثوان بعدها ، لتشعر بمرارة وعار الهزيمة ، قبل أن أطلق النار عليك ، وأنسف رأسك مباشرة هنا .

انطلقت ضحكته الوحشية مرة أخرى ، وتألّقت عيناه فى جنون ، وهو يجذب إبرة مسدسه ، فى حين دارت عينا (أدهم) فى المكان فى سرعة ، قبل أن ينقلب على جانبه ، قائلاً :

ـ لن تربح المعركة أيها الوغد .

ابتسم (يورى) فى سخرية وحشية، وهو يقول:

- لقد ربحتها بالفعل يا هذا .. وكل مافعلته لن يعنى شيئًا، فهناك الآلاف فى (روسيا)، من كبار المسئولين، الذين سيبذلون قصارى جهدهم لإنقاذى وحمايتى.

وانتزع من جيبه تلك الأسطوانة المدمجة، ولوَّح بها فى ظفر، مستطردًا فى شراسة، وهو يمسك بيده هاتف الأقمار الصناعية، فى الوقت ذاته:

- لأننى أحمل هنا قائمة بأسمائهم، وأدلة تكفى لتدمير تاريخهم ومستقبلهم كله.

وعلى الرغم من تهالكه وإصاباته، ارتسمت على شفتى (أدهم) ابتسامة ساخرة، وهو يقول:

- ليس هذا ماقصدته أيها الوغد، وإنما كنت أقصد أنك قد وقعت فى نفس الخطأ، الذى يقع فيه كل حقير مثلك.

تسلل شىء من القلق إلى نفس (يورى)، وهو يقول فى عصبية:

- أى خطأ هذا ؟!

التقط (أدهم) نفسًا عميقًا، وقال:

- لقد تحدثت أطول مما ينبغى.

مع آخر حروف كلمته، استجمع (أدهم) كل مابقى فى كيانه، من قوة وإرادة، وركل قائم العرض المعدنى، ثم تدحرج مبتعدًا ..

ومع قوة الضربة، سقط قائم العرض ..

وأفلت كابل الكهرباء الرئيسى ..

وبكل رعب الدنيا، اتسعت عينا (يورى إيفانوفيتش)، الذى يغمر الجليد الذائب معطفه، وصرخ وهو يرفع يديه إلى الأمام:

- لا .. لا !!!

ولكن الكابل ارتطم بجسده ..

ودوت فى المكان فرقعة رهيبة ..

وأمام عينى (أدهم) ، راح جسد ذئب (المافيا) ينتفض فى عنف ، وقد جحظت عيناه عن آخرهما ، وتشبثت أصابعه بتلك الأسطوانة المدمجة ، التى التصقت بهاتف الأقمار الصناعية ، فى اليد ذاتها ، فى حين تصاعدت فى المكان رائحة شواء رهيبة ، ولوحة الكهرباء البدائية القديمة تطلق شرارات عنيفة ، قبل أن ينصهر أحد مفاتيحهما ، فيتوقف كل شىء فجأة ..

وعلى مسافة أقل من متر ، سقط جسد (يورى) إلى جوار (أدهم) جثة هامدة ، يتصاعد منها دخان خفيف ، فامتدت يد (أدهم) ، تنتزع الأسطوانة المدمجة والهاتف من يده ، وهو يغمغم :

ـ كنت على حق فى أمر واحد أيها الحقير .

وأغلق عينيه ، مكملاً :

ـ كل البشر يموتون فى النهاية ..

فى نفس اللحظة ، التى سمح فيها لجسده أخيراً ، بالهدوء والاسترخاء ، وهو راقد على أرضية ذلك المتجر ، وسط الحطام الشديد ، كانت سيارة (سيرجى) تتوقف أمام المكان ، والكل يهرع منها إليه فى لهفة ..

وعلى الرغم من شعوره بما يحدث ، ومن سماعه لوقع أقدامهم ، لم يفتح (أدهم) عينيه لحظة واحدة ، وشعور عميق بالراحة يملأ كيانه ..

لقد أدى واجبه ، وأنقذ وطنه ، والعالم أجمع ، من كارثة محققة رهيبة ..

ثم إنه قد ربح معركته أيضًا ، وسحق ذلك الذئب ، الذى لايعرف الرحمة ..

ذئب منظمة (المافيا) الروسية ..

الأخيـر ..

تمت بحمد الله